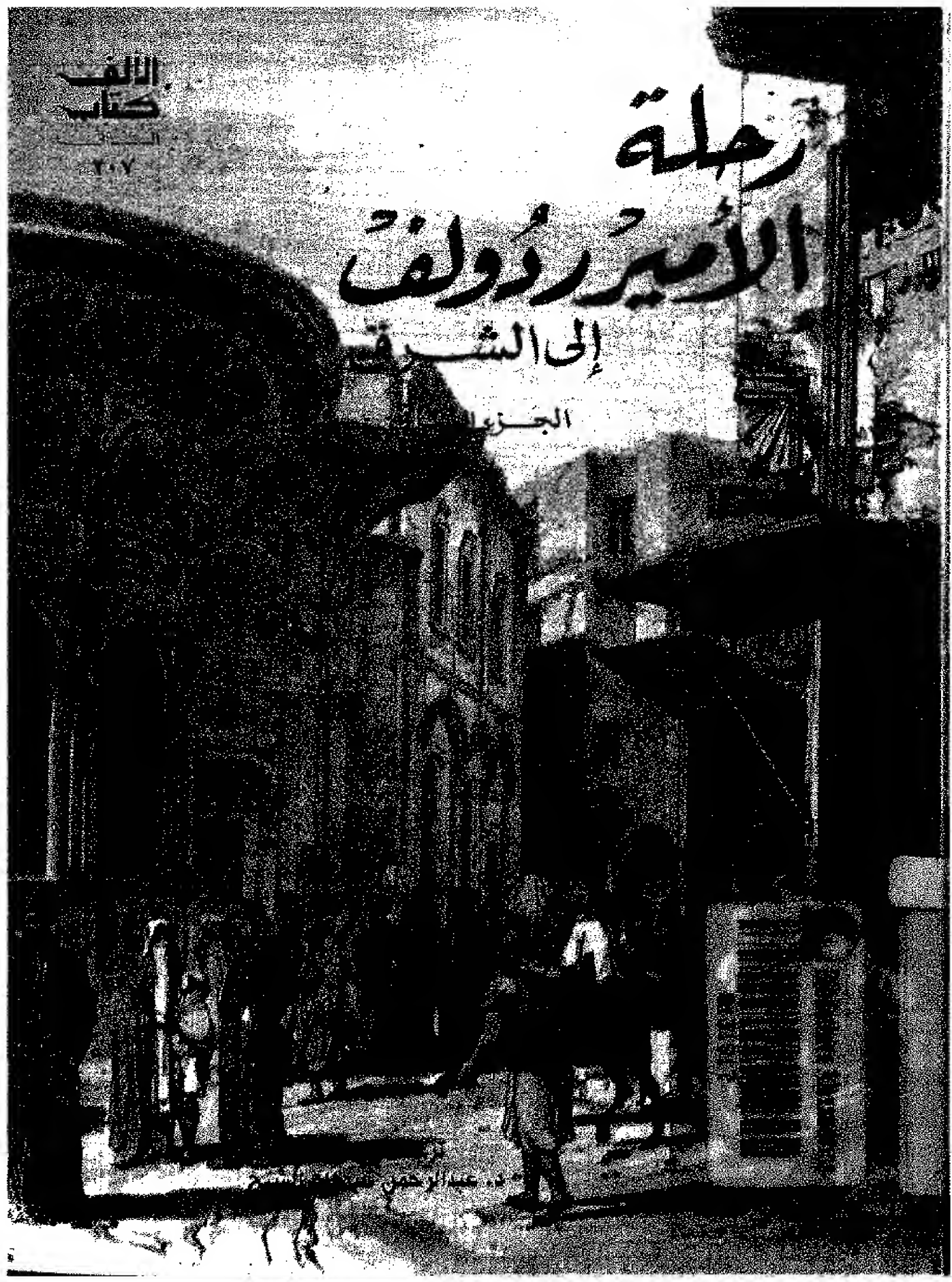


الألف  
كتاب

٢٠٧

# رحلة الأمير رُؤف إلى الشرق الجزيرة



د. محمد الوائلي



رحلة  
الأمير ردولف  
إلى الشرق  
(مصر والقدس)

## الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

رحلة  
الأمير ردولف  
إلى الشرق  
(مصر والقدس)

الجزء الثاني

رئيس السويفرطورى والملك  
الأمير ردولف

ترجمة ودراسة  
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦



## الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٧
الفصل الرابع	٧
تعليقات المترجم على الفصل الرابع	٤٩
الفصل الخامس	٥٤
تعليقات المترجم على الفصل الخامس	٨٨
الفصل السادس	٨٩
تعليقات المترجم على الفصل السادس	١٢٤





## مقدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف - وصحبه - رحلته في هذا الجزء فيصل إلى أسيوط ومنها يتابع رحلته النيلية إلى أسوان وجزيرة فياه ، وفي رحلة العودة يزور ما لم يكن قد زاره في رحلة الذهاب بمعنى أن عودته ليست عودة تقليدية لشخص أدى مهمته وانتهى ، وإنما نجده يزور مناطق لم يزورها من قبل مثل كوم الأمير وأرمونت ، ويتابع زيارته للأقصر وقنا وسوهاج ، وحتى عندما يعود للقاهرة يحدثنا من جديد عن مشاهداته فيها : حديقة الأزبكية ، مولد الحسين ، ويقوم برحلة صيد للهرم .

ويتابع رحلته لشرق الدلتا فيزور بحيرة المنزلة ودمياط والاسماعيلية وبور سعيد ويلتقي بفردناند دي ليسبس المشهور وكان وقتها رجلا عجوزا على حد وصف الأمير ردولف ويعبر قناة السويس فيزور عيون موسى ، ويهود مرة أخرى للقاهرة فيحدثنا عن شجرة مريم ومزرعة النعام والحمام التركي والقلعة والكتبخانة ويتجه بباخرة نيلية للقناطر الخيرية ، ثم يعود لمنطقة السويس ، ويزور بور سعيد ، ثم يغادر مصر إلى يافا .

وقد خصصنا مقدمة الجزء الأول لتكون دراسة مفصلة نسبيا عن الرحلة كلها ، أما في الجزء فنكتفي بإيراد بعض النقاط .

### تجديد الأمور في الشرق :

لاحظ ردولف - كما لاحظ رحالة آخرون سبقوه أو أتوا بعده - أن الأمور أو الأعمال لا تجري في الشرق ( ومصر شرق ) بسهولة « . فليس في الشرق عمل سهل فكل شخص يضطرب طلبا للخدمات ، وكل شخص يبحث حصانه أو حماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينحيه جانبا . . . والكل يصرخ . . . والكل يوهى . . . ويضطر الغريب البائس في خاتمة المطاف لالقاء نفسه بين ذراعي أول قادم » .

## الرقص الشرقى :

يصف الرقص الشرقى فى سعيد مصر بأنه عربلة تحود لخيال مريض .

## البرود الانجليزى :

أشار ردولف الى أنه أثناء إبحاره فى قناة السويس اصطدمت سفينته اصطداما خفيفا بسفينة انجليزية والتصقت السفينتان ، ولكن القبطان الانجليزى ظل ينظر من فوق سطح سفينته متابعا تتابع الموج ، وكان الأمر لا يعنيه . بينما راح الرجال الراكبون مع ردولف يوسعون ما بين السفينتين .

## القناطر الخيرية :

وقد شاهد الأمير ردولف القناطر الخيرية ونقل ما كان يتردد عن هذا المشروع العظيم فى ذلك الوقت من أنه أعاق الملاحة فى النيل ، وأن مردوده الاقتصادى لا يتناسب مع المبالغ التى تم إنفاقها عليه . وغنى عن البيان أن هذه الآراء كان يرددها أعداء مصر وأعداء محمد على ، خاصة وأن الذى كان يتولى أمر مصر - زمن الرحلة - هو الخديو اسماعيل ، الذى كان يترسم بوضوح خطى جده العظيم .

## الطرق الصوفية :

الطرق الصوفية لم يعرفها الاسلام فى عصوره النقية الزاهرة الأولى ، وكان معظم الدراويش الذين رآهم الأمير من أهل شرق أوروبا وآسيا الصغرى ، ورأى فى بعض عمائمهم وطقوسهم تأثيرات فارسية .

ولا نجد أى اعتراض على قوله ان الاسلام فى عصوره الزاهرة الأولى لم يعرف الطرق الصوفية .

د . عبد الرحمن عيد الله الشيخ

## الفصل الرابع

أسيوط - أبو تيج - بركات الشيخ - نخميم - جرجا -  
الوكيل القنصلى القبطى - موسيقا ورقص - البايئة -  
العراة المدفونة - بقايا جثث الجيش الرومانى - تاجر آثار  
أعمى - قنا - معبد دندرة - طيبة - آثار الكرنك العظيمة -  
العبادة - أرمنت - ترجمة برجش لبعض النصوص الأثرية -  
أسنا - الكاب - معبد كوم امبو - جزيرة فيلة - أسوان -  
العبادة فى أسوان - اللذب الميت يتحرك من جديد - رسوم  
بوسنجر - تعليقات المترجم \*

وصلنا أسيوط فى الصباح الباكر والظلمة لازالت حالكة ، ولم تكن  
سعداء لانهم أيقظونا من نوم مريح ، وغادروا الحافلات وسرنا على الأقدام  
- يسبقنا حملة المشاعل - هابطين فى طريق جيدة اضاءته ، حسنة زينته ،  
حتى وصلنا لمرسى البواخر النيلية \* وقفه قابلنا وكيلنا القنصلى بود  
وحرارة ، وهو تاجر قبطى ثرى ، وكان هو الذى أعد كل هذه الترتيبات \*

لقد تفضل الخديو فأعارنا الباخرة فيروز Feruz التى رست على  
الشاطئ وانتظرونا قبطانها المصرى المعجوز على الجسر الموصل لها \*

لقد نما فى نفوسنا حب هذا القبطان المصرى النشيط والمقتدر \*  
لقد كان أفريقيا داكن البشرة ، ولسوء حظنا فانه كان لا يعرف الا كلمات  
انجليزية قليلة بالاضافة للغات الشرقية ، لذا فقد كان نقاشنا معه مضحكا  
ذا طابع فكاهى فقد كنا نستعين بالمترجمين أحيانا وبالإشارات - التى  
ابتكرناها للتعبير عن مرادنا - أحيانا أخرى \*

وقد صحبنا برجش باشا Brugsch Pasha (١) عالم المصريات  
الشهير فى رحلتنا صاعدين فى النيل ، وقد جلس مع الهر راث  
Herr Rath ( المساعد القنصلى ودارس الشرقيات الذى كنا مدينين

له كثيرا بكل جولتنا في بلاد الشرق ) على سطح يخت نائب السلطان  
viceroy ( الخديو ) وهو يخت ضخم فخم مؤثث بكل ما هو مريح .

لقد كانت الكبائن كلها في الغاية من الأناقة ، وقد تم تخصيص  
الغرفة الأخيرة الواسعة لى ، والى الأعلى - على سطح اليخت - توجد غرفة  
طعام رحية كنا نقضى فيها أيضا فترة ما قبل الظهيرة كما كنا نقضى فيها  
ساعات للدراسة .

وعلى سطح اليخت أيضا منصة ( منبسط مدرج ) مغطاة بالكنافاه  
Canvas تمكن المرء أن يلقى نظرة أكثر شمولاً ، وقد وضعنا جلود  
الحيوانات التى صلدناها وكذلك الطيور فوق سطح اليخت وقد أعدنا  
ورشة مزودة بكل ما يتعلق بأعداد الجلود .

فى هذا اليخت الرائع كان علينا أن نقضى أياما لا يمكن أن تنسى ،  
فقد رأينا على ضفتى هذا النهر التاريخى العريق ذى المياه الصفراء أراضى  
لازالت عليها بقايا الجاذبية الساحرة لآلاف السنين من الحضارة القديمة ،  
بين مناظر فى الغاية من الروعة والجمال ، جبال شامخة وصحار مهيبه  
وبساتين عامرة ، وأقدم الآثار فى تاريخ العالم لازالت باقية لتعطى ذروة  
معانى البقاء والخلود .

ان الرحلة فى النيل - بلا شك - هى من أفضل وأجمل الرحلات  
التي يمكن أن يقوم بها المرء ، فهى الأثرى من حيث تنوع المناظر وهى الأكثر  
اثارة للقضايا التاريخية والاثنوجرافيا ( المتعلقة بالاثنوبولوجيا  
الوصفية ) . وإذا كانت أهرامات الجيزة والآثار المحيطة بها فى القاهرة  
تشهد اهتمام الرحالة وتثير فى ذهنه كثيرا من القضايا ، فانها - أى  
الأهرامات - مجرد بوابة للكنوز الأثرية التى يقدمها صعيد مصر .

لقد نظرنا الى السجلات الباقية للحياة الاجتماعية والسياسية لشعب  
انتعشت حضارته منذ آلاف السنين ، فحقق لنفسه القوة ، وأفرز ثقافة  
حقيقية . وقد تمثلت لنا هذه السجلات الباقية فى صالات المعابد الواسعة  
وفى السرايب الغامضة والقبور الممتدة فى الصحور . تعال معى لتنظر  
الى الجدران التى تزينها الكتابات الهيروغليفية التى تكشف لنا حكاية  
العصور الفرعونية .

وعند شروق الشمس ، بدأنا الرحلة عندما حضر المرافقون وتم تحميل  
أمتعتنا . لقد استمر النيل جميلا هادئا - كما كان قبل ذلك خلال الرحلة ،  
فقد كانت مياهه الصفراء تنهدى فى مجراه الواسع ببطء ، وكانت الأرض

على ضفتيه مستوية وتمتد الرمال بعيدا ، أما شاطئاه المرتفعان فمن تربة سوداء ثرية تكثر فيها المضخات والسواقي متعاقبة يتلو بعضها بعضا على نحو منتظم جميل .

وتشكل جبال شبه الجزيرة العربية الداكنة ، وجبال ليبيا البرتقالية بشموخها وجمالها شخصية الصحراء القاحلة تماما . انهما - جبال شبه الجزيرة العربية وجبال ليبيا (\*) - تقتربان اقترابا شديدا - في كثير من المواضع - من مجرى النهر .

ثم تتراجع هذه الجبال مرة أخرى عن المجرى تاركة أحواضا واسعة جافة . ويرى المرء خلال صعيد مصر كله تتابعا منتظما للممرات الضيقة من ناحية والسهول الواسعة من ناحية أخرى .

وعرض الأرض المنزرعة حول النيل - والتي تبدو كشريط أخضر - تختلف باختلاف ابتعاد الجبال والصحاري عن النهر . وتختلط غابات النخيل ذوات الثراء الاستوائى بحقول قصب السكر الصفراء وحقول القول الخضراء وحقول القمح التي تبدو متموجة .

وفي كل مكان تتقاطع القنوات التي يرفعون الماء اليها - عندما يكون الماء منخفضا في مجرى النيل - بالعديد من الآلات البدائية للغاية .

ومما يعطى الحياة على ضفتي النيل مذاقا أنين السواقي التي تديرها الجواميس والتي لا تكف عن الدوران ليلا أو نهارا ، والفلاحون السمر العراة الذين يجلسون على طول الشاطئ أمام الماء - واهب الحياة - الذي يسحبونه لقنواتهم وترعهم .

لقد مررنا على طول مجرى النيل بمدن وقرى . وكانت المزارع الخضراء والمآذن السامقة وأبراج الحمام هي أهم سمات هذه القرى المشيدة بالطين فغدا لونها كلون الأرض ، وكانت القوضى الواضحة من سماتها التي لا تخطئها العين ، وتحلق حدهات كثيرة فوق مساكن الفلاحين ، كما أن نباح الكلاب وخوار الجاموس ونهيق الحمير ورغاء الجمال وأنين السواقي وصياح العرب ، والأتربة والقذارة ، والقوضى هي من الأمور المعتادة .

---

(\*) المقصود بجبال شبه الجزيرة العربية ، كما هو واضح ، جبال صحراء مصر الشرقية ، والمقصود بجبال ليبيا جبال صحراء مصر الغربية - كما هو واضح أيضا ، والاشارة كما - لا يخفى - اجبال المقطم التي تقترب كثيرا من النهر في بعض المواضع .  
( المقترح )

وتقف النسور الضخام على طول الشاطئ الرمل ، والطيور آكلة  
الجيف بجانب الجيف التي سحبتها من فوق سطح الماء . وقد أعطى  
المنظر حيوية وحركة ، تلك الأسراب من الكراكي ( جمع كركي ) واللقاق  
( جمع لقلق بفتح اللامين وتسكين القاف ) وطيور ( أبو ملعة ) والبجع  
وأوز النيل والعديد من البط وكلاب النهر وطيور الخطاب ( السنونو )  
وجيوش من طيور الرمال الصغيرة ( العصافير غالبا ) تلهو وتمرح . ويطلق  
الأوروبيون النار من كل دهبية على طيور الماء التي تلجأ الى هذه البلاد في  
الشتاء . وإطلاق النار على الطيور من فوق السفينة ، أمر غير مجد .

### بركات الشيخ :

لقد مررنا بمدينة ( أبو تيج ) وعندها تتراجع الجبال لتخلي المكان  
ليصبح مساحة مزروعة زراعة كثيفة .

وتوقفت الباخرة ، واقترب قارب ، فسألت عن سبب توقف الباخرة  
واقترب القارب ، فعرفت - ويا للدهشة - أن بين الجبال الصحراوية  
القاحلة ، قبر أحد الأولياء الصالحين ، ويسمونه شيخا  
Moslem Saint, a So Called Sheik وهو يطالب بالضريبة  
Claims a toll (\*) ، والسفينة التي تمر دون أن تدفع هذه الضريبة  
تتعرض وفقا للمعتقدات الشعبية للاضطهاد أثناء سيرها في النهر .  
ويتلقى ربان السفينة الأمين الذي يدفع ( هذه الضريبة ) دعوات وتبريكات  
من المسؤولين التابعين لقام ( قبر ) هذا الشيخ .

لقد مررنا الآن بسرعة أمام مدن طهطا Tachta وفوباس  
Faubas ( ؟ ) وشيداون Shidawin ( ؟ ) ، ومدينة سوهاج ذات الموقع  
الجميل بمنازلها ومآذنها الجميلة .

---

(\*) المقصود كما هو واضح : دفع مبلغ من المال نقدا أو عينا لضريح الشيخ ، أو أن  
شئنا الدقة لخداع ضريح الشيخ ، مقابل أن يقوم الشيخ المتوفى بحماية السفينة من  
الارتطام أو التعرض لأحداث مؤسفة ، وليقوم خدام الضريح بالدعاء باسم الشيخ ( الولي )  
المتوفى . الخ . وغنى عن القول أن المسلمين المثقفين لا يندرون إلا لله سبحانه وتعالى ،  
كما بات معروفا أن « البقشيش » ، « الحلوان أو الحلاوة » و « النذر للشيوخ والأولياء »  
ما هي إلا أساليب تفتق عنها العقل الشرقي للحصول على « أموال » بدون عمل أو نتيجة  
عمل الآخرين ، وهو الأمر الذي يفسر أيضا ازدهار مهنة « السمسرة » غير المقتنة لمجرد  
التسقل غير الإيجابي في أية عملية بيع أو شراء أو تداول للأموال والأعمال . . . كما  
يرى القارئ فإن هذه الأمور لم تلق العناية الكافية بإبعادها الحقيقية - ( المترجم ) .

وتتابعت المشاهدة الجميلة : جبال رائعة ومنحدرات تخلي المكان لتحل محلها غابات النخيل والمدن . لقد رحنا ندخن بارتياح ونتجاذب أطراف الحديث أو نقرأ ونحن جلوس فوق ظهر السفينة نتمتع بالهواء النقي الذي يردده النهر ، وبرائح النباتات الأفريقية العطرة وبأشعة الشمس الرائعة . وبين الحين والحين كنا نطلق النار على بعض طيور الماء من مسافات بعيدة ، وغالبا ما كانت طلقاتنا تذهب سدى . انها حياة كسول ، لكنها مسلية وتضيف لمعارفنا ما يزيدنا ثقافة .

### أخميم وجرجا :

وبعد الظهر مررنا بالمدينة الهامة أخميم Al-Achmim التي تقع بين النخيل ، وفي المساء ظهرت لنا مدينة جرجا Girgeh الجميلة والثرية ، عند منحنى حاد للنهر .

لقد لونت أشعة الشمس الغاربة المنظر كله بلون ذهبي . فأصبح كل شيء - بما في ذلك الجبال والنهر والأشجار والمدينة والحقول - يسبح في قبض من الألوان لا يمكن للغة أن تصف مدى تأثيرها في النفس روعة وبهاء .

فأضواء أمسيات القاهرة الشهيرة تعد مظلمة اذا قورنت بأضواء الصعيد التي تزفها الشمس اليه . لقد اقتربنا من مدار السرطان وهو حد المنطقة المدارية ( الشمالى ) واتجهت باخرتنا نحو مرسى جرجا وقضينا الليل عند الشاطئ المترب المرتفع .

### الوكيل القنصلى القبطى :

وبعد تناول العشاء صعدنا للشاطئ - مستخدمين سلما - استجابة لدعوة وكيلنا القنصلى . هذا القبطى الثرى ، وأحاط بنا جمع غفير متنافر من الشرقيين المحبين للاستطلاع .

ووصلنا لمقر الوكيل القنصلى بعد أن مررنا بشارع ضيق على جانبيه تقع المساكن الطينية المعتادة المزينة ببعض الزخارف والكتابات العربية .

ووجدنا فى الطابق الثانى - بعد أن صعدنا سلما ضيقا منحدرًا - غرفة عوانا بين حضارتين ، فنصفها شرقى ونصفها أوروبى .

: فرائحة عطر الورد والأرائك التركية - فلا وجود للكراسى - والقهوة والسجائر المعطرة والجدران العارية ، والأقمشة والستائر المتنوعة من

الخامات الشرقية الثرية - كلها عناصر حضارية شرقية ومع هذا فقد بذلت جهود سقيمة لتبدو أوروبية - تلك سمات مساكن الأثرياء الشرقيين .

### موسيقا ورقص :

وما كدنا نجلس ونلحن حتى ظهر فريق موسيقى مكون من أربعة عازفين ذوى منظر زرى ويبدون عربا بمعائهم الكبيرة وأثوابهم الزرق المتواضعة ، وكانت آلاتهم الموسيقية بدائية : ناي خشبي ، وجرس من صفيح ( يقصد غالبا النار أو الطار tam-tam ) وما يشبه العنبلة ، وكم أن يشبه آلة الجسوزلا Gusla فى جنوب سلافونيا الجنوبية Our south-Sclavonic (٢) .

وفى كل مكان يسود فيه الاسلام تجده هذه الآلات الموسيقية السخيفة ذوات الأنغام الرتيبة المملة الخنفاء بشكل عام ، والتي تصدر ضجيجا وحشيا فى أحيان أخرى ، ثم يعود عازفوها ليحزفوا عليها الحانا عابسة كثيبة بعد أن عزفوا قليلا من الألحان المرحية .

وفى جنوب أسبانيا حيث يكثر المسلمون Moors سمعت الأنغام الموسيقية نفسها بين الفجر ، انها - أيضا الموسيقي التي يجعلها السلاف الجنوبيون Southern Slaves تصاحب أغانيهم الكثيبة عن البطولة بينما هم يجلسون القرقصاء فى ليالى الشتاء حول نار التدفئة يحلمون بأيام كراجون ماركو Kraljewic Marko المعنة فى القدم ٠٠ انها نفس خصائص الأنغام العنيفة - التي تدعو للرقص المرح - التي سمعتها فى جرجا

لقد تم عزف المقطوعة التمهيدية ثم ظهرت الراقصات فى ملابسهن الطويلة الضيقة البهيجة بقوامهن النحيل وحليهن المتدللية حول أعناقهن ، وكانت وجوههن - بحكم طبيعة عملهن كراقصات - غير محجبة ، لقد كن مسلمات ( مغربيات ) Moors جميلات ، وقواقزيات بيضساوات يتناقضن فى ملامحهن مع الفلاحين الخالص الذين يشبهون المصريين القدماء : منخاران واسعان ، جبهة منخفضة ، أنف محدد واضح ، وقم صفيح .

وهؤلاء الراقصات يشكلن طبقة متغلقة يزدورها المسلمون الأتقياء . وقد طردن من شمال مصر لما يثرنه من فتنة وغواية بتصرفاتهن غير المنضبطة لذلك قهن تنتشر الآن فى كل مدن صعيد مصر ، وتعود بعضهن فى أصولهن لبعض مدن الصعيد .



وتعشن - بشسكل عسام - معا فى أحياء نائية عن المدن ويعرضن خدماتهن على أفقر الطبقات وعلى الغرباء الفضوليين ، ويعملن فى بيوت الأثرياء حيث يرقصن بعد المأتب فيشاهد الحاضرون الذين يتخنون الشيبوك والترجيلة - رقصهن باستمتاع كبير .

ويبدأ الرقص بأن تتحلق الراقصات فى دائرة ويتشن ، ويقمن بحركات كثيرة غير محتشمة بمنعنى الخجل من الاستطراء فى وصفها ، انها عربية ترجع - وفقا لانطباعى - لأزمة شاع فيها الانحلال والخيال المريض (٣) .

وبعد أن مكثنا قليلا عدنا الى باخرتنا - مخترقين المدينة - لننال راحة كنا فى حاجة ماسة اليها .

#### البليانة :

وفى الفجر واصلت الباخرة رحلتها وقبل الظهر بوقت غير قليل كنا عند البليانة Belianch وهى قرية طينية غير مهمة تحيط بها غابة نخيل جميلة .

ونزلنا للشاطئ دون توان والعيون المتفرسة تكاد تخرق جلودنا ، وركبنا حيرنا ضئيلة الحجم التى لم تعد اعدادا جيدا وانطلقنا خلال بساطين النخيل والحدائق خارج القرية .

لقد امتد شريط عريض بشسكل مقبول من الاراضى الزراعية على شاطئ النيل ويحيط بالشريط سلسلة جبال شامخة من الجانبين ، وراينا حقول قصب السكر والفول والقمح وحقول أشجار نخيل قصيرة وأشجار جميز ، كل ذلك على ضفة النيل الغربية ( صوب الصحراء الليبية ) .

لقد كانت هناك حركة دموية على المروج الخضراء ، فقد كان السكان مشغولين بالعمل والحراث أو رعى القطعان الكبيرة . وأثناء رحلتنا لاحظنا أنه كلما أوغلنا فى الجنوب ، زادت دكانة بشرة السكان وأصبحت ملابسهم أكثر بساطة .

#### العراة المفسونة :

لقد رأينا لأول مرة نخيل جوز الهند الجميل bushy palm وهو شجر متوطن فى مناطق أفريقيا الداخلية .

وعند الطرف الحاد للأرض المزروعة وبداية الصحراء القاحلة المهجورة تقع القرية القسذرة الحقيمة المعروفة باسم العرابة المدفونة Arabât-el-Madfuné بين بستان نخيل صغير . ولا يملك السكان الفقراء هنا سوى أبراج حمام ضخام ويرى المرء آلاف الحمام ترقرف بالقرب من أبراجها . انها حمامات كبيرة تكاد تكون برية .

وتبدأ الصحراء المحيطة بوادى النيل واضحة وحادة حيث ترتفع الأرض ولا يصلها ماء النيل ، ويمكن تأكيد هذه الملاحظة هنا عند آخر منزل من منازل العرابة المدفونة . انك تنتقل فجأة من أثرى الحياة النباتية الخضراء الى صحراء بيضاء تبهر النظر بضيائها . بدون المرور بأية منطقة انتقالية .

وتقع بقايا أبيدوس Abydos ذات الجدران الخالدة الزاخرة بالرسوم التى تذهل الرحالة وتبهجه . بين أحجار وقمامة على بعد مئات قليلة من الياردات من القرية ( قرية العرابة المدفونة ) .

انك تجد نفسك بين بقايا عصور سحيقة بقيت محفوظة لم يعثرها الخراب ، بسبب مناخ صعيد مصر الجميل المشمس الجاف .

ومنذ زمن الأسرة الفرعونية السادسة ( حوالى ٢٣٠٠ ق م ) وهذه البقعة قريبة من حافة الصحراء ، وكان اسمها القديم أبيدو Abidu ، وكان ينظر اليها كمقبرة مخصصة لأوزوريس Osiris مصر العليا . ومن هنا كانت أمنية المصريين القدماء الطبيعية هى أن يجدوا فى هذه البقعة مقبرة ( منوى أخيرا ) فى رمال الصحراء . فثمة معابد عديدة لأفراد ، ومقابر فخمة لبعض ملوك مصر ترتفع فوق الرمال ، تغرى الزوار بالوقوف اجلالا لملك الموتى أوزوريس الطيب ، احياء لذكراه . ومعابد الملك سيتى الأول Seti I ( ١٣٦٠ ق م ) وابنه ووريثه رمسيس الثانى ( ١٣٠٠ ق م ) هى أوضح المباني الأثرية التى تعرضت للنهب . ومعبد الملك سيتى - خاصة - يمتاز بالرسوم والكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدرانه وأعمدته وهى تمثل أزهى فترات الفن المصرى القديم . وحقق هذا المعبد أيضا شهرة بسبب القائمة التى تضم أسماء الملوك ( السبعة والسبعون فرعونا ) منذ أيام مينا ( يسميه الاغريق مينز Menes حتى أيام رمسيس الثانى ، وتعد هذه القائمة الأساس الذى لا يقدر بشئ لكل البحوث فى مجال التاريخ المصرى القديم .

والمعبد الجنازى الثانى بناء رمسيس الثانى ويقع الى الشمال من المعبد الأول ، ولم يحتفظ برونقه بنفس درجة احتفاظ معبد سيتى بها ،

لكن بقاياها تتكون من أحجار محببة وكتل من الالاباستر والجرانيت تحمل على سطوحها الناعمة الملساء عديدا من الرسوم والكتابات ذات قيمة فائقة للدراسات التاريخية والجغرافية والميثولوجية ( أساطير الآلهة خاصة ) المتصلة بعصر القديمة . وقد اتخذ العديد من شواهد القبور من نكروبولس Necropolis في أبيدوس Abydos طريقه الى فينا .

وبينما كنا نتفحص جدران المعابد وحالاتها شاهدت بعض النسور من الجبال الصحراوية المجاورة يحلق فوق رؤوسنا ثم حلقت دائرة بعيدا في الفضاء ، وقررنا باصرار أن نغرى هذه الطيور الضخمة لنقتنصها لكن المسألة الآن كانت هي أين نجد المكان لنطرح فيه جيفة .

لقد كان خلف المعابد بعض أكوام عالية من القمامة والأحجار يمكن للمرء ان اعتلاها أن يلقي نظرة على السهل الصحراوي الواسع الذي يمتد من حافة الأرض الزراعية حتى سطوح الجبال بتكويناتها الجميلة وقممها الشامخة ، واتخذت قرارا بأن أتجول في هذا السهل بحثا عن بقعة مناسبة ( لاغراء النسور ) ، وبينما كنت أجول شاهدت ( حقا ) من المقابر على بعد مئات قليلة من الأمتار من المعبد .

### بقايا جثث الجيش الروماني :

وفي أيام الأباطرة الرومان دمرت الأمراض والمجاعة جيشا رومانيا في هذا المكان ، وظلت جثث المقاتلين الرومان ملقاة دون دفن في فوضى هائلة ، وحتى هذه اللحظة يمكن للمرء أن يتحدث - حرفيا - عن جثثهم ( أجسادهم bodies ) ، فالشمس الأفريقية والرمال الحارقة والهواء الخالي من التلوث عملت جميعا على حفظ الجثث فجعلتها كأنها محتضات طبيعية . لقد وقفت أمام أجساد وأذرع وسيقان وأيد لا زال اللحم الذي سففته الشمس عالقا بها . والجماجم المكشورة لازالت تتغلف بفروة الرأس ، وطيات اللحم الداكنة على الوجنات لغتت نظري على نحو خاص ، وأخذت معي - كتذكار - واحدة كان منظرها لا يبعث على الرعب كمنظر الجماجم الأخرى ، ان المرء يخوض بالفعل في بحر من الهياكل العظمية والآثورة . لقد كانت صورة الصحراء كالتالي : سهل أبيض متألق ، رمال تحرق الأقدام ، عظام مبيضة متناثرة ، مسرح للثعالب وحيوانات ابن آوى ، والنسور الصلحاء تحلق عاليا ، وفي خلفية الصورة الحيود الجرداء العارية لجبال الصحراء . ليس من ورقة نبات خضراء تسعد العين وليس من شيء يخفف من وطأة انعكاسات الشمس الحارقة على كتل الصخور البيضاء والصفراء وأكوام الرمال التي اتخذت أشكالا واضحة تحت السماء

العصيفة ذرقتها • ليس من شك في أن روح الشعر تغمر الصحراء ، فهي رغم رقابتها تقدم لنا مناظر فخمة مهيبة • وأخيرا وجدت تلا منخفضة بدا يمكن استخدامه لنحجب به تقدمنا ، لذا فقد أسرعنا أقود الخروف الى الموضع وطعنته ونزعت أحشائه ، وهيات القطعة الأولى لاغواء النسور ، وأسرعنا عائدا لرفاقى فى المصيد •

وبعد أن تفقدنا بدقة كل الآثار تناولنا افطارنا الذى كنا قد أحضرناه معنا فى إحدى القاعات القديمة • وماكدنا ننهى طعامنا حتى قمت ومعى هويوز Hoyos بزيارة موضع الخروف ، وماكدنا نصل الى مسافة يمكن منها أن نطلق النار حتى اكتشف نسر حذر ، اقترابنا فضرب بجناحيه وارتفع عن الأرض ، وتبعه مالا يقل عن عشرين من رفاقه شديدى اليأس • وكان هويوز Hoyos حسنا حظه حتى انه أسقط نسرا أبيض كبيرا أصلح الرأس من بين هذه المجموعة • أما أنا فكنت أقل مهارة فأصبحت نسرا كبيرا جدا بجرح غائر فطار على ارتفاع منخفض عبر السهل • لقد مزقت هذه الطيور الجارحة جثة الخروف المسكين بشراسة والتهمتها ، فلم يبق منه سوى فروته ، وبعض القطع الممزقة •

#### فلاح أعمى يتاجر فى الآثار :

وبعد انتهائنا من هذه الجولة من جولات الصيد ، عدنا لرفاقنا الآخرين وذهبنا معهم نحو القرية حيث زرنا قلاحا أعمى ، وكان هذا الرجل المحترم واحدا من أغنى ملاك العقارات فى القرية ، ويمارس بالإضافة لذلك الاتجار فى الآثار المصرية ، فهو يحفر المعابد وحولها ، رغم مخالفة عمله هذا للقانون • وقد حصلنا - بتوجيه من برجش باشا - على بعض العاديات الصغيرة ، وأتيح لنا - فى الوقت نفسه - أن نتفقد المنزل البدائى - ولا أقول القذر - لسكان وادى النيل •

ومن العرابة المدفونة ركبنا عاقلين عبر الريف الى البلينة Belianeh وكنا نمارس الصيد أثناء الطريق ، فقد أطلقنا بنادقنا على طرائد صغيرة ، وكنا مشوقين على نحو خاص لاصطياد النسر المنقضى ( ٩ ) Glide-eagle وهو طائر أفريقى جارح له ريش أزرق وأبيض ، ويرتاد بأعداد كبيرة بساتين النخيل وآبار السحب •

وبعد الظهر عدنا للباخرة ، وتابعنا إبحارنا فى النهر جنوبا لمدة ساعتين قبل أن يحل الظلام ، لم تتغير المناظر الا قليلا ، لكن المساء الجميل بمنظر الشمس الغاتن عند الغروب أمتعنا ، لا بسبب جمال الألوان

وتدرجها فحسب ، وانما لأن ذلك أتاح لنا الخروج ببعض الملاحظات  
الاثنوجرافية الشائقة . فعند الغروب يقود الفلاحون جمالهم وجواميسهم  
وحميرهم وماعزهم وأغنامهم لتشرب آخر شربة لها في النهار ، فيزدحم  
الناس على شاطئ النهر لهذا الغرض : انهم رجال ونساء كأنهم أتوا من  
عصور سحيقة ، يتوضأون وفقا لتعاليم القرآن (الكريم) ، وتحمل النسوة  
جرار الماء ( الزلج أو البلايص ) ، انهما الجرار نفسيهما التي استخدمها  
الفراعنة ، لم تتغير أشكالها أو مادتها ، انهن يملأنها من ماء النيل الجاري  
لاستخدام المساء ، وتبتل ثيابهن الزرق الرقيقة بالماء فتلتصق بأجسادهن  
الرشيقة ، وعيونهن السوداء الواسعة تتلأل حزنا على صفحات مياه  
النيل ، وأفواههن المفتوحة شيئا ما تنطق بالأغاني الحزينة . انهم البشر  
نفسه الذين رأيناهم مصورين على جدران المعابد ، وبدا لنا وكأن القبور  
فتحت للسماح لرعايا الفراعنة بالعودة على ضفاف النهر المقدس .

وأوقفنا باخرتنا عند قرية صغيرة ، وبعد أن قضينا أمسية بهيجة  
خلدنا للنوم ، وعند شروق شمس الثاني من مارس واصلنا رحلتنا ،  
وقضيت فترة الضحى على ظهر السفينة لاحظ المناظر الجميلة على  
الشاطئ . مع أنها المناظر نفسها التي مرت بي في الأيام الماضية : حقول  
خضراء وبساتين نخيل ومدن صغيرة وجبال تنحدر في الوادي . وعلى طول  
الشاطئ الرمل الطويل كان يوجد - على أية حال - ثراء في الحياة  
الحيوانية لم نعتده من قبل . أسراب هائلة من البجع ، وطيور البطون ،  
والأوز . وأكد مساعد الصيد التابع لي أنه رأى تمساحا :

## قنا :

وعند الظهر وصلنا قنا ، وهي مدينة ذات مساحة معقولة ومشيدة  
بيوتها من الطين وتزدان بمئذنة سامقة ، وقد رمت بنا السفينة ، فركبنا  
حميرا ومررنا ببساتين نخيل جذابة ، الى جانب قرية بائسة كانت تسور  
الجيف تقف على أكوام السماد ( السباح ) في حدائقها ، رغم وجود  
الدجاج غير بعيد عنها ، وسرعان ما وصلنا للساحل المزروع زراعة جيدة .

وينشئ النيل عند قنا ويقترب كثيرا من جبال الصحراء الغربية  
( الجبال الليبية ) ، لذا فالشريط الزراعي ضيق جدا وبعد ركوب دام  
نصف ساعة وصلنا - لمعبد دندرة Dendera الشهير - انه يقع - مثل  
بقايا أسدوس - على حافة الأرض الزراعية ، وإن كان المعبد نفسه قائما  
في رمال الصحراء .

ولا أجد في هذه المناسبة أفضل من إيراد كلمات صديقي برجش Brugsch عن هذا المعبد :

« دندرا اسم حديث لمعبد يتردد الناس عليه كثيرا للزيارة على الضفة الغربية للنيل في مقابل مدينة قنا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، وكلمة قنا تعريب للكلمة الإغريقية Caenopolis وتعني المدينة الجديدة كما أسماها الجغرافيون اليونان ، والكلمة اليونانية بدورها مساوية ( مرادفة ) للاسم القديم تنتار Tantare . ومعبد دندرة لا زال يحتفظ برونقه القديم وهو مخصص لعبادة الربة هاتور Hathor . وهي بمثابة الربة فينوس Venus عند اليونانيين ، ويرجع تاريخ المعبد إلى أواخر عهد البطالسة وبداية عهد الرومان في مصر . وترجع أهميته إلى المعلومات التي يقدمها عن تصميم المعبد المصري القديم ، بوحداته المختلفة . »

وإذا وضعنا في اعتبارنا معبد ادفو كمعبد مشابه ، بل وأكثر اكتمالا ، اتضح لنا أن وحدات ( أجزاء ) المعبد المصري القديم كالتالي :

١ - برجان ، كالجناحين في مقدمة المعبد ، بينهما يقع المدخل الرئيسي . وإلى اليمين واليسار من البوابة مسلتان وتمثالان للملك المؤسس تشكل ( التمثالان والمسلتان ) الواجهة الأمامية للمعبد .

٢ - ساحة مكشوفة ذات أروقة معدة تسمى البهو المعبد . Peristyle

٣ - مجاز ( أو ردهة ) ذو واجهة نصف مفتوحة في المقدمة ، تتجلى واضحة في معبد دندرة ، وتزين الصور الفلكية ، والكتابات المناسبة هذا المكان .

٤ - صالة الطعام banquet وعن يمينها ويسارها غرف .

٥ - غرفة الأضاحي ومنها غرف جانبية .

٦ - الغرفة الوسطى ، ومنها أيضا غرف صغيرة .

٧ - المقدس أو قدس الأقداس ويقع في وسط الجزء الأكثر إيغالا للمداخل وكأنه معبد داخل معبد . وفي قدس الأقداس مصلى حجرية بها صورة لاله الضريح ، بالإضافة للقوارب المخصصة لأغراض نبيلة خاصة ، وفيها صور الكهنة يحملون صور الآلهة ، ويفصل قدس الأقداس عن الشرف الأصغر مساحة ممر خاص ، والغرف الأخرى الأكثر أهمية تقع مباشرة خلف هذا الممر . أن قدس الأقداس يمثل الجزء الأساسي لأي معبد فرعونى ، فالمحور الأساسي لمبنى المعبد يمر بالضبط من وسطه .

ومن المر يصعد المرء ما يشبه الدرجات الى كل الغرف المتتابة .  
وتصميم معبد سليمان Temple of Solomon بصفوف أعمدته وقاعاته  
وممراته وقاعة أضحياته وقدس أقداسه ( مكان العهد ) مماثل بالضبط  
معمار المعبد المصرى القديم .

وقد تفحصنا على ضوء المشاعل كل غرف المبنى الكبير ، والسرايب  
الضيقة ، والسلالم ، والممرات ، وبقيت مدة طويلة فى الظلام تحت القاعات  
المعمدة ، وكانت كتل الأحجار الضخام غير المظلمة مزدانة بالنقوش  
الهيرغليفية الثرية مستنعية فى أفئدتنا تلك الأيام الخوالى . ان المرء  
لا يتصور بقايا من العصور القديمة أكثر حيوية من تلك الموجودة فى معبد  
دندرة بجمالها الغامض البديع ، فالمرء يرى بعينى روحه كهنة هذه الديانات  
القديمة يتحركون بشياهم البيض الطويلة ولحاهم السود المجدولة وأغطية  
رعوسهم المرتفعة ، حاملين الأضاحى لتقديمها للآلهة القوية لمملكة النيل  
القديمة .

وفى المر المهجور تعشش الخفافيش الآن بأعداد كبيرة لا تصدق ،  
وفى الصالة الكبيرة تقف بومة ، بينما على الأفريز بنى زوج من الغربان  
عشيهما . وأطلقت بندقيتى على أنثى الغراب السوداء الكبيرة بينما تطير  
محلقة عبر البوابة .

وألقينا نظرة ممتعة - من بعيد - من فوق سطح المعبد ، على النيل  
والأرض الخضراء على احدى الضفتين ، وعلى الصحراء الشاسعة والجبال  
من خلفها ، على الضفة الأخرى . انها صورة جليظة : آثار داكنة وصحراء  
خالية وجبال متفردة ، لا شئ أخضر ولا حتى شعاع من أشعة الشمس  
يسعد العين ، فعظمة الألوان وتالق السماء قد غابا عنا هذا اليوم بعد  
الظهر ، فكل شئ لفته الظلال الداكنة ، وأصبحت السماء قائمة لا من  
سحاب - فهنا غير معروف فى مصر العليا - وإنما بفعل الأتربة والرمال  
وركود الهواء ، وكل أولئك مقدمة لهبوب رياح الخماسين Champsin  
التي تعد من رياح الصحراء القاسية .

وعدنا مساء لسفينتنا ومارسنا الصيد طوال طريق العودة وقضينا  
الليل على سطح السفينة وهى راسية فى الموقع نفسه ، وفى بكور الصباح  
واصلت السفينة إبحارها فى النيل . كانت رياح الخماسين الثقيلة تعبت  
فى الوادى وغطت سحب الرمال الصحراوية الجبال وكأنها ضباب .

وظهرت الشمس كقرص أحمر - لم تستطع أشعتها اختراق جيوش  
الأتربة والرمال . كل شئ غطته الرمال التي كانت تتوغل حتى الى كبائن

سفینتنا المغلفة ، وسببت ازعاجا مرعبا ، وساد الهواء الثقيل الباعث على الاحباط ، لكن ذلك أعطى المناطق الأخرى ( البعيدة عنا ) منظرا جميلا ، وتأملنا مندهشين في هذا الأمر الذى بدأ لنا بعدا غريبا من أبعاد الطبيعة .

وأطلقنا البنادق على البجع ، ودجاجات النهر وبعض نسر الماء المزعجة ، لكن ذلك كان بلا جدوى ، فقد كانت المسافة بيننا وبينها طويلة . ومررنا ببعض المدن ، كان من بينها فقط Kus وقوص Kus .

طبيعة المنطقة هي نفسها ، وكل ما حدث من تغيير هو تراجع الجبال لتخلي مكانا لطبيعة ذات الشهرة في التاريخ القديم بالإضافة لثرائها وجودة زروعها .

### طبيعة :

وفي الساعة الثانية عشرة وصلنا لمرسى مدينة الأقصر المهمة . وكان فى المرسى باخرة بريد وبعض الدهيلت ( البواخر ) الخاصة بالمسافرين الأوربيين . والأقصر الحديثة ، مدينة عربية أصيلة ، مساكنها مشيدة من الطين ، وتقع فى وسط بقايا الآثار المصرية القديمة ، وإن امتدت على نحو ما فى مواجهتها . فعلى ضفتى النيل نجد الأرض مغطاة لمسافة طويلة ببقايا طيبة ، وتمتد على الضفة الغربية ( الشاطىء الليبى ) حتى الجبال .

ورسيت سفینتنا بمجرد وصولنا وصعدنا الى الشاطىء الرملی واستأجرنا بعض الحمر من ميلان بلطاني يقع أمام فندق الأقصر ، وهو فندق صغير قذر ، وركبنا الحمر ومررنا بشوارع المدينة الضيقة مارين بسوق غير عامرة بالبضائع ، وإن رأينا فيها خلقا كثيرا ، يترددون جيئة وذهابا على أحد أحياء المدينة لا تسكنه الا الفوازي Ghawazi ( الراقصات ) ، فالأقصر مشهورة برصيدها الكبير من الراقصات . وبعد آخر المساكن أقيم معسكرنا ذو الطابع الفجرى فى أرض رملية ، ولم يكن المكان نظيفا .

وسرعان ما وصلنا لمنطقة مكشوفة فسارت حميرنا بسرعة بين أشجار النخيل والخمبول المزروعة . وعلى البعد أمكننا رؤية بقايا الكرنك العظيمة : بوابات ضخمة وأعمدة وجدران . فالكرنك يقع فى الأرض الزراعية الى جوار بستان نخيل رائع . وتعد النخلة الجنوبية شعارا لأفريقينا فهي تقدم للرأى صورة ذات تأثير ، بالإضافة للآثار المتألقة التى تعيد للأذهان حضارة أعرق شعوب الشرق حضارة



وعند مدخل الكرنك تقع قرية صغيرة ومزرعة لم تنم أشجارها نموا كاملا . وثمة أسراب من طيور آكل النحل برعوسها الزرقاء ، ويحركتها التي تشبه حركة الفراشات كانت لا تكف عن الطنين ، وقد أطلقنا بنادقنا على كثير من هذه الطيور الأفريقية الجميلة طمعا في ريشها الجميل .

### آثار الكرنك العظيمة :

دعونا الآن نأخذ قبسا من كلمات برجس باشا الذي كان دليلا ومعلما وذواقة طاف بنا خلال آثار الكرنك العظيمة ، تلك الآثار التي تعود لأزمنة موهلة في القدم :

« معبد الكرنك كان فيما مضى يرتبط بالأقصر بطريق طويل بشكل غير عادي (طريق أبي الهول Sphinx avenue) وهو - أي المعبد - عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مبان تعود الى حقبة تاريخية مصرية مختلفة . فغالبا ما كان كل ملك - خلال فترة امتدت حوالى ألف وسبعمائة سنة يشعر أنه لزاما عليه أن يخلد ذكره بتشييد مبنى ، ومن هنا فإن تاريخ الامبراطورية طوال هذه القرون قد مثل في هذا المعبد الامبراطورى . ويعتبر الفراعنة الذين سبذك أسماؤهم توا هم أبرز مؤسسى هذا المبنى :

١ - تحتمس الثالث وأخته حتشبسوت Hatchep ( حوالى سنة ١٦٠٠ ق م ) واليهما تعود مسلات الكرنك وقد سجلت انتصارات تحتمس الثالث فى آسيا وأفريقيا من خلال رسوم وكتابات ثرية قدمت معلومات مهمة تاريخية وجغرافية عن هذه الحقبة .

٢ - سبتى الأول ( ١٣٦٠ ق م ) وهو مؤسس الصالة الكبيرة فى المعبد ، تلك الصالة المقامة على ١٣٤ عمودا تذكرنا - بتصميمها وزخارفها - بمعبد أبيدوس . وفى الجدار الشمالى الخارجى صور تمثل الحروب بين هذا الملك والقبائل العربية والسورية كما تمثل عودته لمصر . وهى رسوم ذات قيمة تاريخية عالية .

٣ - رمسيس الثانى ( سيزوستريس ) ( ٤ ) وهو الذى أكمل ممر الأعمدة بعد موت والده سبتى الأول ، وسجل الجدار الجنوبى الخارجى حروب هذا الملك مع ملك الحيثيين Hethi وحلفائه الآسيويين . . . . . وثمة إشارة أيضا الى شيشانق الأول Shashank I ( وهو الملك شيشانق الوارد فى الكتاب المقدس ) ليسجل معركته ضد مملكة يهوذا Judah من وجهة نظر مصرية . وإلى الجنوب من معبد الكرنك - فى اتجاه النهر - يوجد معبد بحالة جيدة هو معبد الاله

القمرى شوزو Chousu وقد أنشأه رمسيس الثالث ( ١٢٠٠ ق م )  
وثمة عمود مربع Pylon مهيب أمامه يعود لأيام البطلمة ، ومعبد الإله  
Chousu يشير أيضا لسقوط الفراعنة الرماسة Ramses ( انتهاء  
دولتهم ) «

وفي الاتجاه الجنوبي من الكرنك ، يوجد حرم مقدس خاص لموت  
Mut زوجة آمون الذى يعتبر بمثابة زيوس zeus اليونانى - الى جوار  
بحيرة لا تزال موجودة .

وتماثيل آلهة القمر والنور المصرية Egyptian Juno كلها من  
جرانيت أسود لها رؤس أسود ، والواحد منها يمثل ربة تقف وقفة  
جليلة ، وكلها محيطة بالنافورة المقدسة ، وحتى الآن لا تزال بعض هذه  
التمائيل فى مواضعها القديمة . وقد تم نقل بعض أفضل هذه التماثيل  
- منذ أعوام عديدة - الى متاحف أوروبا المختلفة ، .

وبعد أن تجولنا بين القاعات الواسعة وبين ما لا حصر له من الأطلال  
والأعمدة عدنا من الطريق نفسه الى الأقصر . وفى أوسط المدينة يقع  
منزل الوكيل القنصلى لبريطانيا وهو عربى ثرى ، وكان بيته محاطا بغاية  
من الآثار القديمة ، وقد استقبلنا هذا الرجل المعجوز الماكر بزي نصفه  
أوربى ، ورحب بنا بحرارة ، وعرض أن يبيعنا آثارا مصرية بأثمان باهظة .  
واشترينا بعض القطع الجميلة وشربنا فناجين القهوة ، وهذا أمر  
لا مفر منه ، ثم تابعا تفقدنا للآثار داخل المدينة . ومرة أخرى أدع برجش  
يتحدث بدلا عنى :

« كانت طيبة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وطوال  
ألف وسبعمائة سنة العاصمة المثالية للامبراطورية المصرية ، وحتى أغانى  
هومروس Homer أشارت الى شهرتها وعظمتها . ويقسم النيل المدينة  
الى قسمين كما ورد فى كتابات كثيرة ، ووفقا لبقايا المباني القديمة التى  
مازالت باقية . والشطران معا يمثلان مدينة Uas أو Pi Amon أى مدينة  
آمون أو كما سماها الاغريق ديوزبولس Diospolis والجزء الواقع  
على الضفة الشرقية للنيل يختص باسم أبى Api أو تابى T-Api ، وإلى هذا  
الاسم الأخير يرجع الاسم اليونانى Thebai أو Thebae .

وقد أطلق المصريون المحدثون على الآثار والخرائب على هذا الجانب  
اسم الأقصر El-lugsor ( القلاع باللغة العربية عمادة ما تكتب  
الأقصر ) (\*) وهذه الآثار بالإضافة للكرنك لا تزال - حتى الآن - تشير

(\*) هذا غير صحيح كما لا يخفى على لجنة القاريه - ( المترجم )

اعجابا شديدا . ففي الأقصر مباني الملك أمنوفيس الثالث Amenophis III ( سنة ١٥٦٦ قبل الميلاد ) وإلى الشمال منها مباني رمسيس الثاني ( سيزوستريس ) ، وكلها مباني قوية جليلة ، والجانب الأمامي لجناح بوابة معبد رمسيس مزدان برسوم عن معركة رادوش Radosh في أورنت Orontes وهي المعركة التي حقق فيها الملك نصرا واضحا على الحيثيين وحلفائهم ، وقد بقيت مسلة واحدة ( وهي المسلة الشرقية ) من المسلتين في موضعها القديم . أما عن الأبعاد المتعددة للتماثيل الضخمة لهذا الملك فيمكن جمعها من الرموس الناتئة من الأرض ، .

وبينما كنا ننظر لمختلف الآثار تحلق العرب الجشعون حولنا حاملين معهم قطعاً أثرية صغيرة ( وهي آثار في غالبها - وفقا لما قاله برجش باشا - مزيفة ) وقالوا انهم استخرجوها من الحفائر ، عرضوها علينا بطريقة لطوحة تبعت على الضيق ، وكان لابد أن ندافع عن أنفسنا بطريقة عنيفة إزاء انساعهم وزحامهم وكثرة إساءاتهم .

#### العبادة :

وفي شارع جانبي وجدنا جماعة من العبادة Ababdehs وهم جنس غريب ، فهم - على الأقل - ليسوا عربا ، ومظهرهم اجنبي تماما وبعيد عن الجنس السامي ، كما أنه بعيد تماما عن أن يكون جنسا زنجيا .

وهم يدعون أنهم منحدرون من بعض الأجناس الآسيوية النائية ، وكان هذا الجنس الآسيوي في حالة هجرة في أيامه الأولى - انه الجنس الكوشي Kushites - متخذاً الاتجاه الجنوبي ثم مساحلا لسواحل المحيط الهندي فسواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم دخلوا أفريقيا ، واستقرت هذه العشائر المميزة في الحبشة وما وراءها وفي مناطق الصومال ومن ثم اتجهوا الى أسوان ومنها الى طيبة .

والعبادة Ababdahs بشكلهم المميز يعدون حتى الآن طبقة منفصلة واضحة تسكن التلال الى الشرق من النيل بين النهر والبحر الأحمر بدءا من طيبة الى جنوب أسوان . انهم جبليون بؤساء يعيشون في الأودية الصحراوية الجبلية ، واحتفظوا بطابعهم دون تغيير وظلوا دون كبير تطور .

انهم متوحشون وغير اليقين ، بكل ما في هذه الكلمات من معان ، وتنهب جلودهم التحاسية وأجسامهم التحيلة وملاحمهم الثقيلة عن أصول هندية . وشعورهم سوداء يدهنونها بالشحوم ويجعلون منها قرونا

يشبونها في هيئتها بقطع من الخشب ، أما ثيابهم فبعض أسمال بسيطة  
قدرة يلقونها بشدة حول أجسامهم .

ويضعون جميعاً حلقات في آذانهم وحول أذرعهم فتحس الصبي  
الصغير يضع حلقة في أنفه . أما أسلحتهم فسيوف عتيقة - من بينها  
سيوف أوربية تعود لفترة الحروب الصليبية - وعصى خشبية ورماح  
بدائية ودروع جلدية وسهام وأقواس وجعبة سهام تلقى منهم عناية  
خاصة ، ولكنهم لم يرغبوا في بيع أى من أسلحتهم هذه ، واحتاج الأمر  
لتدخل عبد القادر باشا ليندبر لي كثيراً منها .

لقد كانت ضربة حظ أن نلتقى بالعبادة في طيبة فهم نادراً ما يأتون  
لأسواق هذه المدينة ، لكننا عندما وصلنا لأسوان ، أتاحت لنا الظروف أن  
نعرفهم بشكل أفضل (٥) .

وبعد هذه المقابلة الشائقة مع العبادة انقسمت مجموعتنا :  
أما الدوق الكبير وأنا فقد ركبنا عائدين للكرنك مرة أخرى لنمارس صيد  
الحيوانات البرية مساء ، بينما عاد باقى الرفاق إلى الأقصر . وقد أرشدنا  
صياد عربى اسمه خليل إلى منطقة قريبة من آثار الكرنك ، وكانت هذه  
المنطقة التى دلنا إليها خليل بالقرب القريب من منازل قرية صغيرة ،  
فبمجرد أن تركنا هذه المنازل استندنا فى الحقول وسرعان ما وصلنا لتل  
رملى يقع فوقه مقام أحد الأولياء المسلمين القدماء .

وأوقفنا الصياد العربى فى مركزين ( نقطتين ) مختلفين فى ظل  
بستان نخيل صغير ، وأصدر إلى تعليمات بأن نجعل بنادقنا جاهزة  
للاطلاق وأن تنتظر بسكون كامل حتى تجرى الأمور فى مجراها الصحيح .  
كانت رياح الخماسين قد بدأت تهب بعد الظهر ، لكن المساء كان جميلاً  
عقب نيار سيبى . وغربت الشمس بعظمة غامرة سهل طيبة الواسع وجبال  
الصحراء التى تتسم بالشموخ هنا ، وآثار الكرنك الجليلة بألوان بهية  
غاية فى البهاء . وحركت النسائم العليقة جريد النخيل وسعفه ، وهبت  
الروائح الشافية من النباتات اليانعة وهدل الحمام فوق الشجيرات هديله  
ذا الشجن ، وشمل السكون كل ما حولنا فكان لهذا تأثيره الملطف بالنسبة  
لنا ، فكاد النوم يغلبنى ، فهزنى خليل بشدة ، على حين غرة - وكان يكمن  
بالقرب منى - وأخبرنى بلهجة حادة أن حيواناً من حيوانات ابن آوى  
من بالقرب منى وأقالت . كان الليل فى هذه الأثناء قد هبط فاتخذت  
مع الدوق الكبير طريقنا عائدين . وأثناء العودة لمحت شيخ حيوان يرقى  
سريعاً ، فاطلقت يندقيتى كيفما اتفق ، وغمرتني السعادة إذا اكتشفت أنني

قد اصطلدت حيوانا من حيوانات ابن آوى . وبعد حصولى على هذه الغنيمة الثمينة ، وصلنا فى الحال الى حيث الحمير تنتظرنا ، فركبنا مسرعين الى الباجرة . وقد غمرنا السرور .

واخذ بعض منا بنصيحة خليل فبدؤوا فى يكور صباح اليوم التالى قبل بزوغ الشمس بوقت طويل وذهبوا الى بركة بعد آثار الكرنك (٦) ، تنجبا اليها الحيوانات الكبيرة غير المستأنسة لتروى ظمأها ابتداء من فترة ما بعد الغروب . كان الطريق طويلا يخيم عليه سكون الموت فليس من صوت الا عواء حيوانات ابن آوى ونباح الكلاب شبه المتوحشة - ثانيا بين الحين والحين لتقطع سكون الليل . واخيرا وصلنا للبركة او ان شئنا الدقة مستنقع الماء المتخلف عن فيضان النيل . وأعد خليل مواضع البنادق بسرعة بينما نحن نلاحظ باهتمام شديد حتى أشرقت الشمس ذهبية حمراء على النيل العربى ، ولم نر شيئا سوى واحد من حيوانات ابن آوى تركه الهر راث Herr Rath ينسل هاربا .

ان الفترة القصيرة التى تمثل مرحلة انتقال بين ظهور حمرة الأفق حتى شروق الشمس ، تمثل ثراء فى الألوان ، وتباينا ساحرا ، لا مثيل له الا فى داخل أفريقيا . ورأينا كثيرا من الطيور من أنواع مختلفة ترد الماء فقررنا أن نقضى فترة ما قبل الظهر فى اصطيد الطيور ، وبالفعل أصبح فى حوزتنا عدد كبير من الطيور الصغيرة . كان من بينها عدة أنواع من السمان ، ويوجد هذا الطائر فى هذه المنطقة منتجعا شتويا له . ووصلنا لآثار الكرنك بعد جولة فى الحقول . وقد عاد عدد من الرفاق الآن الى الأقصر بينما تخلفت أنا وتخيرت لى مكمننا بين الحرائب لأراقب جيفة قريبة فى انتظار قدوم النسور الكبار . ولسوء الحظ لم يظهر الا واحد من نسور الجيف وحداة ، ولم أطلق بنديقتى على أى منهما .

ولم يكن هذا النهار ملائما لهذا النوع من الرياضة ( صيد الطيور ) لأن سحب الرمال كانت تغطى المكان حاجبة عنا حتى رؤية أقرب الجبال ، فقد عادت رياح الخماسين عاصفة هذا الصباح ، لذلك سرعان ما غادرت مكمنى بين أطلال مضر القديمة واتجهت الى بركة مائية صغيرة تحفها ألواح حجرية وهى بركة قديمة تقع بين البقايا الأثرية ، فهنا تلجأ بعض طيور الشنق ( أو الجهلول ) وبعض طيور زمار الرمال ( أو الطيطوى ) لتلتقط أنفاسها بعد رحلة شاقة ، وقد أطلقت بنديقتى مرات عدة فانهيت حياتها المضطربة .

وركبت شاقا أقصر الطرق الى الأقصر ومن ثم للباهرة . وكنا قد خططنا لفترة بعد الظهر للقيام بأول زيارة لآثار الضفة الغربية ، لكننا اضطررنا لتغيير خططنا بسبب العواصف الرملية وقررنا تأجيل زيارتنا لطيبة الغربية بعد عودتنا من زيارة الشلالات ( الجنادل ) .

وقضينا جانبا من فترة ما بعد الظهر فوق ظهر السفينة وجائنا آخر في الأقصر ، وذهبت مع برجس باشا لزيارة الوكيل القنصلي لالمانيا ، انه رجل قبطي يعمل بتجارة الآثار ، ووجدنا عنده قطعاً أثرية أفضل من تلك التي كانت عند الوكيل القنصلي لانجلترا الذي زرناه في الأسس . وقد اشترينا منه قطعاً مختلفة قيمة وضعناها فوق ظهر الباهرة . ومما يذكر أن مجموعة المتحف المصري تنمو بسرعة .

#### أرمنت :

وواصلنا رحلتنا جنوبا عند شروق شمس اليوم الخامس من الشهر . وبناء على نصيحة بعض الأوربيين في الأقصر قررنا التوقف عند قرية مجاورة هي قرية أرمنت مشهورة بمصنع السكر ، وبكثرة مزارع القصب بها ، وخصصنا عدة ساعات للصيد هناك . وبعد ساعتين وصلنا الى أرمنت ، وقد استقبلنا بعض السادة الفرنسيين المسئولين في المصنع - المصمم على النسق الأوربي تماما - بحرارة ووضعوا في خدمتنا عددا كبيرا من عمال المصنع كنا نحتاجهم لآثار الطرائد المختبئة في مزارع القصب الكثيفة ، وأعلنوا لنا قطارا كان علينا استقلاله لارصول الى المناطق الملائمة للصيد ، فمررنا في طريق تحفه أشجار الجميز الجميلة بالقرب من المصنع ، وفي غضون دقائق وصلنا لمحطة صغيرة لحط سكك حديدية قصير يربط المصنع بمزارع القصب .

وكان علينا بعد ذلك أن نجتمع العمال الذين سسيقومون بأثارة الطرائد ، وأتى حشد من الفلاحين قادمين من المصنع وتجمعوا مباشرة في عربات خاصة تستخدم لنقل القصب ، وجعلنا أنفسنا في آخر عربة من هذه العربات وبدأنا نشق السهل مخلفين وراءنا البساتين الجميلة للموظفين الفرنسيين ثم مررنا بقرية ريفية بائسة حولها بستان نخيل صغير .

وبعد رحلة قصيرة توقف القطار . ليس ثمة الا شريط ضيق من الأرض الزراعية يفصل النيل عن الصحراء التي تقترب كثيرا من النهر في هذه المنطقة .

وأثار الفلاحون الطرائد فى أقرب حقول القصب ، ولسوء الحظ أن حقل القصب كان واسعا وكثيفا جدا فلم ننظر بما كنا نأمل فيه ، غير أن ذئبا واحدا ظهر واستطاع أن يهرب من مكمنه دون أن يمسسه سوء . وسرعان ما أدركنا ألا جدوى من محاولتنا فعدنا للقطار ، وفى طريق العودة - من خلال القرية التى ذكرتها للتو آنفا - أطلقت بندقيتى أثناء ركوبى على نسر من نسور الجيف كان يقف مع نسور أخرى الى جوار منزل طينى . وفى حديقة أحد الموظفين الفرنسيين أرونا حيوانات ابن آوى ، كما أرونا - ما يظنه هؤلاء الناس الطيبون - أوكارا للذئاب . ولم تكن محاولة إحضار كلاب الدشهند هنا مجدية ، فعدنا لباخرتنا بعد أن غبنا عنها فترة وجيزة .

وكان لأرمينت دور مهم فى التسايف القسديم ، فاسمها باليونانية هرمونثز Hermonthis وبالمصرية القديمة اسمها آمونث Anmonth.

ولأن أرمينت تقع على الضفة الغربية للنيل كما تقع الى الجنوب من طيبة ، فانها بمعابدها المكرسة لعبادة الاله مونت Month ( وقد نهب اللصوص المصريون آخر هذه المعابد منذ سنوات قليلة ) تعد من بين اقدس المواضع .

وبعد التدهور السياسى لمدينة طيبة ، أصبحت أرمينت عاصمة للطيبين ، كما كانت أرمينت المقر الفعلى لحكومة السلطات الاغريقية الرومانية فى جنوب مصر . ويوجد ضمن المجموعة الامبراطورية فى فينا الآن قطع عمود من الجرانيت الأسود كان موجودا على شاطئ أرمينت . وفيما يلى ترجمة برجش باشا للوحة الجرانيتية السوداء الموجودة فى أرمينت والتى تعود الى الملك أمينوفيس الثانى Amenophis II ، حوالى ١٥٦٠ قبل الميلاد وهى مجرد تكرار لما فى معبد Amada فى النوبة :

« فى السنة الثالثة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أبيب  
In the year 3, on the 15th day of the month Epiphi,

تحت حكم حورس المهييب الجليل القوى ،  
Under the government of Herus the mighty and powerful bull,

تحت حكم صاحب السلطة الملكية الذى يمتد سلطانه بعيدا ،  
Of the possessor of the diadem whose power reaches far,

الذى توج فى طيبة ،  
Who Was crowned in Thebes.

تحت حكم حورس المنتصر الذي وحده ( مصر ) كلها بالقوة ،  
Of the victorious Horus who had taken possession by force of all the  
Country.

تحت حكم المقدس صاحب الفضل ،  
of the divine benefactor,

تحت حكم الاله الذي جعل ( مصر ) ثرية ،  
of the Lord who makes Egypt rich.

تحت حكم ملك مصر العليا ومصر الدنيا ، رع - آ - شبيرو  
of the king of upper and lower Egypt, Ra-à-cheperu,

تحت حكم الابن الحبيب لرع - اله الشمس ،  
of the very own son of the sun-god Ra

تحت حكم حاكم ارمنت الشبيه بالاله ،  
of the God-Like ruler of Hermonthis,

تحت حكم صديق خنوم رب فيلة العظيم ،  
of the friend of the great good Chnum of Elephantine.

فصاحب الفضل المقدس الذي خلقه رع ( الشمس ) ملك عظيم منذ  
ولادته ،

The divine benefactor created by Ra (the sun) is a great king from  
this birth up.

انه قوى كحورس على عرش آياته ، ليس لقوته كفوا أحد ،  
Powerful as Horus on the throne of his fathers, the strong-armed has  
none who is his equal.

انه الملك ذو البطش ، ( او ذو اليد القوية )  
That is a king of a strong hand

ليس من بشر يقدر على قياس قوسه ،  
Whose bow no man Can Span

سواء من بين المقاتلين التابعين له او من بين أمراء الشعب او من بين  
ملوك آشور .

Neither among his warriors, nor among the princess of the people,  
nor among the Kings of Assyria.



فقوته أعظم من قوة كل الملوك مجتمعين .  
for his strength is greater than that of all the kings.

إن غضب صار نمرا ( كالنمر ) في غضبته .  
In his wrath he is like the leopard

وفي ساحة الوغى لا يجسر أحد على مواجهته .  
If he head the battlefield there is none that will meet him.

منتصر في الحروب فهو درع مصر وحاميها .  
Victorious in battle he is a bulwark for Egypt.

تمتزع قوته بالشجاعة ، ويبقى منتظرا في الشعب فهو يعف عند  
المفتم .  
Strong in Courage, he waits in the defile the hour of plunder.

يولي أعداؤه الأديار أمامه ،  
His adversaries flee before him  
لأن قوته تحلق ممتدة فوق كل الناس ، فرجاله جبارون وكذلك  
خيوله .  
for his power is out-stretched over all people with their mighty men  
and horses,

وإذا أقبل أعداؤه بالملايين لا يساوره خوف ، فالاله آمون هو حارس  
دربه .  
and if his foes came in millions he need not fear the God of whose  
path is Amon.

وإذا خرج في حملة تلبس بدنه في الحال كل قوى البشر ،  
if he is on an expedition forthwith man's strength takes possession of  
of his body.

وأصبح مثل الاله خم chim ( بان Pan ) ( \* ) يوم الفرع ،  
and he is like to the God Chim (pan) in time of horror.

---

(\*) رب الغابات والمراعى والرعاة عند الاغريق وفي قبيل الخلفة . معجم المصطلحات  
الاثريه ل محمد كمال حسني - ( المترجم )

فلا يستطيع أحد أن يفلت من قبضته •  
and no man can save himself from his arm.

وكل الشعوب والبلاد أصبحت خدما له •  
all the peoples & countries became his servants.

وكل من يكرهون الملك أصبحوا أسرى لقواه السحرية •  
They that hated the king have become subject to his magic powers,

نعم ، فهذا أكيد ، فقواه السحرية تطولهم حتى آخر فرد فيهم •  
Yea to the very last of them

الجراح وما جرح ، ( لا يستطيع جيش أن يوقف تقدمه ) •  
His hands give wounds, and no arm can stay him.

ففي ظل أنفاسه - وحدها - تكمن الحياة •  
only in his breath is life.

ملك الملوك ، أمير الأمراء أتى الى هنا بكل سكان المعمورة •  
The King of Kings, the prince of princes has brought hither the inhabitants of the utmost ends of the earth.

فهو وحده ينصر من ينصره ، ويؤمن به كالشمس في السماوات  
He is the only one, and a champion for those who extol him and  
acknowledge him as a sun in the heavens.

نظرتة مرعبة في الحروب  
His glance is terrible in the day of battle.

لا حد لسلطوته على الناس والشعوب  
No bounds are set to him to the number of the people.

اتحد الغرباء ، لكنهم سقطوا على الأرض من شدة الحرارة ، لأن فمه  
يزفر نارا محرقة ( لأن فمه كالنار المحرقة )  
The strangers unite, they fall to the ground at the heat, for his mouth  
is like a Consuming fire.

لم يفلت منهم أحد ، والذين خروا لم يقوموا  
None of them escape, those who fall do not arise.

انهم كأعداء باسيت ( ديانا ) في طريق ...

They are like the adversaries of Bast (Diana) on the way of ...

لكن آمون أعطاه الصحة وباركه لانه يعرف أنه ابنه وأنه خرج وإياه  
من جسده واحد ليحكم كل ما ألفت عليه الشمس نورها من شعوب الأرض  
وبلادها .

But Amon gives health & blessing to him who Confesses that he is  
his son, Sprung from one body with him, to rule whatever the sun  
encompasses, the people and countries of earth.

فحالما ينظر الى كل هذه الشعوب والبلدان تغدو ملكه بفعل جبروته  
وقوته .

As soon as he beholds them, they are his possession through conquest  
and mighty strength

انه الملك الذي يجد المسرة في قلبه بفضل أعمال الأرباب ، وبناء  
معابدها وإقامة التماثيل ( الصور ) لهما ، ويجد المسرة لزيادة الأضحيات  
الطازجة والخبز والجمعة بوفرة ، والحمام والسجاج اليوم وكل يوم وإلى  
الأبد . و ( الأضحيات ) من الثيران والماعز في الأعياد حيث لا مجاعة .

That is the king who finds pleasure in his heart for the works of the  
gods, the building of their temples, the setting up of their images, in  
the increase of fresh' scarifices, bread and beer in abundance, doves  
and winged fowl for to-day and daily for ever. Of oxen and goats in  
their season (the festivals) there is no lack.

انه يعطى المعبد للاله ( معبد فيلة للاله خنوم ) مزودا بكل شئ :  
كثير من الثيران والأبقار والسجاج .

He gives the Temle (i.e. the Temple of Elephantine to the god Chnum),  
Provided with all things, oxen, Claves, and fowl in abundance.

وهذا المعبد مزود أيضا - تأكيدا لعظمته - بالقرايين ، وبالحب  
والجمعة والنبيد .

This temple also is provided for in its greatness with offerings, with  
bread and beer and wine.

وقد أعاد تجديده ليحظى بأعجاب البشر واعتراف كل الشعوب  
ويظل للآباء والآلهة فترة طويلة من الزمن بعد ذلك ،

That which the fathers and Gods long after, he has instituted a new to  
the admiration of men and the acknowledgment of all people.

★★★

لقد وجد برجش باشا هذا التسجيل الجميل والشائق بينما كنا  
لنارسى الصيد واتخذنا قرارا بضرورة أخذ هذا الجرائيت الأسود عند  
عودتنا الى أرمنت قادمين من أسوان \*

وواصلنا رحلتنا دون مزيد من التأخير وسرعان ما وصلنا الى نقطة  
انثنى عندها النيل ثنية حادة ، وتقترب الجبال من المجرى في الضفتين ،  
وعند منطقة الجبله Gebelch تنحدر الجبال بشدة نحو النهر ، والمسيلات  
( الوديان الصغيرة ) ، والصخور والمنحدرات الصخرية لجبل نساخ  
Nissah الشامخ الأجرد شرق النيل - كلها مناظر تتسم بجمال خاص \*

وبينما كنا فوق ظهر باخرتنا النيلية سعداء برؤية الأرض الزراعية  
الجميلة لمحت جاموسة ميتة على الشاطئ الرملى تحيط بها النسور  
واكتشفت - مستعينا - بالتلسكوب نسورا كبيرة زرقاء رؤوسها وهي  
طيور أفريقية خالصة ، الى جانب النسور ذوات الرؤوس البيضاء \*

ومما يؤسف له أن الطيور الجبابة لم تسمح لباخرتنا بالاقتراب  
لتهيئة المسافة المناسبة لاطلاق بنادقنا ، فتوقفنا وذهبت أنا والدوق  
الكبير الى الشاطئ \* واتخذنا من بعض الشجيرات غطاء كافيا وانتظرنا  
بهموء آمليين أن تعود النسور ذوات الرؤوس الزرقاء لاكمال وجبتها \*

يا خسارة ، لم يأت أى منها وإنما أتى زوج من نسور الجيف المهمة  
فأطلقت النار من بندقيتى الخفيفة على واحد منهما ، وأقبل رهط من  
الفلاحين المستطلعين عند سماع صوت البندقية ( لقد كانوا داكين تماما  
وغالبهم عراء ) ، فعضت معهم صفقة مؤداهما أن يضعوا بعض الجيف  
- يرميا - فى هذا الموضع ألا يزعجوا الطيور بأية حال من الأحوال \*  
على أمل أن أجرب حظى فى اصطياد النسور ذوات الآذان ( الزرقاء رؤوسها )  
عند عودتى \* ووعدنى الناس الطيبون - لقاء الحصول على البقشيش -  
أن ينفذوا - حرفيا - ما طابناهم منهم \*

وجدفنا عائدين لباخرتنا وتابعنا الابهار جنوبا دون مزيد من  
التأخير ، وبعد أن مررنا الى الأدنى من تل أجرد فى أعلاه ضريح أحد الأولياء  
( الشيخوخ ) القدامى ، بدأت الجبال تتراجع عن الوادى فيصبح السهل  
عريضا شيئا فشيئا ، حتى غدا عند اسنا واسعا حسنة زراعته \*

## اسنا :

وقبيل الغروب وصلت سفينتنا الى مدينة اسنا الكبيرة التى تحيطها  
بساتين النخيل والحدائق الخصبة اليبانة \* ولما رست الباخرة ألقينا نظرة

من فوقها استمتعنا خلالها بحيوية الحياة الشرقية وصخبها ، تلك الحياة التي تعج أمامنا على ضفاف النيل .

كان المساء باردا منعشاً ، بعد أن عانينا من الحرارة الأفريقية الأصليلة التي أعقبت هبوب رياح الخماسين . وبعد أن تناولنا غداءنا غادرنا السفينة فاستقبلنا المدير بحفاوة ، فركبنا الحميم ودربنا حول المدينة لنصل إلى معبد شهير بالقرب منها .

واسمنا هي مدينة سيني Sini المصرية القديمة ، وقد أسماها الاغريق لاتوبولس Latopolis بسبب عبادة سمكة اللاتوس Latus وهي عبادة كانت موجودة في هذه البلدة ، وبها عدد من المعابد والأماكن المقدسة مكرسة لعبادة الاله خنوم Chaum ، وثمة بقايا مجاز ( ردهة ) لا زالت باقية لواحد من أكبر هذه المعابد ، ويقع غائرا إلى منتصفه في تربة المدينة الحديثة .

ومما يعطى هذا الأثر الذي يعود لزمن الامبراطورية الرومانية أهمية خاصة ما يشير إليه من التقويم المصري القديم القائم على العام السكندري والصور الفلكية في سقفه . وفي ضوء مشاعل كثيرة رأينا أن صالة ( ردهة ) هذا المعبد تبدو بحالة جيدة جدا ، وقد بقينا لفترة طويلة في غرفة مظلمة نستمتع بالمناظر ( الصور ) الشائقة ، ومما يذكر أن هذا المعبد حديث نسبيا إذا قورن بالآثار الأخرى فهو يعود إلى زمن الامبراطورية الرومانية . وفي طريق عودتنا قبلنا دعوة المدير الودود وسرعان ما وجدنا أنفسنا جالسين في الطابق الأرضي لمبنى حكومي جميل ، واسترحنا فوق الكنب divans ودخنا بسعادة وشرينا القهوة وما كدنا ننتهي من تناول هذه التحية التي قلما نلقى منها في ( الشرق ) حتى فتحت الأبواب ودخلت فتيات خفيفات الخطو ليرقصن مصحوبات بموسيقا مناسبة . لم تكن الفتيات — هنا — جميلات ، خلا واحدة كانت حبشية ذات ملامح محددة جميلة وبشرة بنية داكنة متألقة . وبعد أن مكثنا فترة يسيرة استأذنا المدير وعدنا للباخرة .

### الكا ب ثم ادفو :

وتابعنا رحلتنا في بكور السادس من مارس وسرعان ما وصلنا إلى مر الكا ب El-Kab حيث تقترب جبال الضفتين من مجرى النهر يوحشية وشاعرية . لقد كانت المنطقة جميلة . وبعد أن اجتزنا هذا المر تراجعت الصحراء الغربية ( الليبية ) لتختل مكانا لسهل ادفو العريض المزروع بشكل جيد ، بينما استمرت جبال الصحراء الشرقية ( العربية )

قرية من النيل • لقد تغيرت - أيضا - طبيعة الجبال : فبدلا عن التلال المحددة أشكالها والشامخة أصبحت نرى جبلا من حجارة رملية تشكل قممها المنخفضة أشكالا ذوات طبيعة خاصة •

وقبل الظهر وصلت باخرتنا الى ادفو Bâfu فركبنا عبر بعض الحقول الى قرية بائسة جدا بالقرب منها ، ووصلنا الى أفضل معابد مصر العليا من حيث بقائه مصونا ، وواحد من أفضل وأجمل القطع المعمارية في كل العصور ، وذلك بعد أن مررنا بشوارع ضيقة قدرة حتى وصلنا لهذا المعبد الجليل الذي يقع بين أكوام القمامة والخرائب - وبدنا تفقد المعبد يرشدنا برجش باشا • وادفو هي ديبو Debû او ادبو Edbو المصرية القديمة ، وأسماها الاغريق أبولونوبولس العظيمة Apollonopolis ، ويعتد معبد ادفو بالفعل أحد أعظم المعابد وأوسعها ، وقد ظل منذ العصور القديمة حتى الآن محتفظا برونقه ومصونا بشكل يدعو للاعجاب •

والمعبد - بشكل عام - مصمم وفقا للخطة ( التصميم ) التي ذكرناها آنفا ، ولذا فهو يقدم للمراقب المعاصر أكثر الصور صدقا لبناء المعبد في مصر القديمة •

وهذا المعبد الواسعة أرجاؤه مخصص لعبادة حورس Horu إله النور وهو بمثابة أبولون اليوناني الذي وصفته النقوش بدقة باعتباره إله الشمس في مصر العليا ويمثل في رأس صقر ويبدو الإله منتصرا على جحافل الظلام ويرمز له بفرس النهر غير المروض • وقد حفرنا المناظر في الجانب الداخلي للجدار الذي يمثل الحد الغربي حيث تبين - أي المناظر - معركة إله النور ضد الظلام والشر ، بشكل أخلاقي ، وتذكرنا بالأسطورة اليونانية الشهيرة عن عمال هرقل الاثنى عشر Twelve labour of Hercules • ان ثراء الرسوم والنقوش التي تغطي كل سطوح الجدران المساء والأعمدة في هذا المعبد تتفوق في محتواها على سائر آثار مصر الأخرى •

فالتفاصيل الدقيقة التي عرضت بها المعلومات تجعلها حقا معينا لا ينضب • انها معلومات تاريخية وجغرافية واثنوجرافية وفلكية ومعلومات متعلقة بنظام الخلعة في المعبد ٥٥٠ الف ، وثمة جزء منفصل تماما عن التراث الميثولوجي (الأسطوري) المتعلق بالآلهة ، انها معلومات ثرة يمكن أن تملأ مجلدا سميكًا • وطول المعبد - اذا قسناه من جداره الخارجي الذي يحدد حدوده : ٤٣٣ قدما و ٦ بوصات ، وعرض كل جناح : ١٠٠ قدم و ٦ بوصات أما ارتفاع كل جناح من الأجنحة فيبلغ ١٠٣ أقدام •

وساحة المعبد وبهوه المعبد يقومان على ثلاثة وثلاثين عمودا ، وهما ( الساحة والبهو ) يتسمان بالجمال والبهاء ، ويتركان فى النفس تأثيرا ، والصلالات التى تحاذى اتجاه المحور من الجنوب الى الشمال ، يتلو بعضها بعضا فى نظام مقروض حتى تصل الى قدس الأقداس حيث توجد حتى الآن مصلى القداسة الحجرية التى تعود لأيام آخر فرعون وطنى national pharaoh

وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن المبنى كله مشيد على نسق تصاميم قديمة على عهد الملوك البطلمة من سنة ٢٣٧ الى ١٤٢ قبل الميلاد ومن ثم فقد استغرق تشييده خمسة وتسعين عاما ، وذلك وفقا لما تشير اليه النقوش .

وبعد أن تفقدنا كل أرجاء المعبد صعدنا الى سطحه المسطح وألقينا نظرة على النيل والوادي الأخضر وعبر الصحراء التى تبدأ بالقرب من المعبد وعلى ما وراءها من تلال التى تتخذ شكل الأهرامات لقد كان المنظر جميلا .

ولان النسور كانت تحلق فوقنا ، فقد وضعت ذبيحة خلف كومة من الدبش وانتظرت فوق سطح المعبد خلف فتحات فى سورته حتى تأتى الطيور الجارحة الكبيرة ، ومما يؤسف له أنه لم يأت الا نسور الجيف فأقنعت نفسى بهذه الغنيمة المتواضعة ، فقد كنا فى عجلة لمواصلة الرحلة فى موعدها ، فركبنا عائدين الى باخرتنا بعد أن مررنا بقرية بائسة وسلكنا الطريق نفسه الذى وصلنا للمعبد منه .

وما هى الا دقائق حتى واصلت الباخرة ابجارها فى مجرى النيل ، وكانت المناظرة مألوفة متشابهة ، وكانت جبال صحراء مصر الشرقية ( الجبال العربية ) ذات لون أبيض ضارب للرمادى كما كانت منخفضة غير محددة ، وكانت تقترب من النهر كثيرا كلما تقدمنا ( صوب الجنوب ) فلم تترك بينها وبين النهر سوى شريط ضيق جدا ، وفى بعض الأحيان كان هذا الشريط يختفى تماما .

وجبال الصحراء الغربية ( الليبية ) منخفضة أيضا ويميل لونها للصفرة وقد اتخذت أشكالا معقدة غريبة . والى الجنوب من ادفو تقترب كثيرا من مجرى النيل باستمرار .

ان الرقعة الخضراء فى هذا الجانب أصبحت ضيقة جدا حيث التربة ممتازة لكنها - للأسف - مهمله ، وليس ثمة مدن هنا أما القرى فنادرة .

ومرت أسراب كبيرة من طيور اللقلق فوق الوادى متجهة شمالا وكانت الطيور الجارحة تحلق عاليا أو تتجمع فوق الصخور ، ودجاجات الماء تملا الضفتين بين الحين والحين . وبعد الظهر استمتعنا بمنظر جبل السلسلة الجميل Gebel-selseleh من فوق ظهر سفينتنا ، وفى المساء - عند غروب الشمس - وصلنا للنقطة الشمالية لجزيرة واسعة كثيفة الزروع ، فأبحرت سفينتنا الى الشرق منها ، وسرعان ما رأينا معبد كوم امبو الصغير ، الا أن موقعه ممتاز . وهذا المعبد القديم يقح على شاطئ النيل فى موضع مرتفع وشديد الانحدار منطى بالخضرة . ويمكن رؤية هذا المعبد من مسافة بعيدة وليس من ممد قريبة منه ولا حتى أية تجمعات بشرية ، فهو قائم بين النهر والصحراء التى تتقدم هنا على هيئة هضبة مرتفعة الى حافة الشجيرات النابتة على ضفة النهر . وليس ثمة ما يمكن أن يقال له جبل .

#### معبد كوم امبو :

ولأن الليل كان يزحف ، فقد رسونا الى الأدنى من المعبد : وكان الى جوار سفينتنا ذهبية ( سفينة أخرى ) يشغلها أوربيون . وكان مترجمهم من الدماشيا خبيرا نصحننا أن نذهب بعد تناول العشاء الى المعبد ومعنا عنز نحشها على الثناء ، ثم نكمن فى انتظار الذئب ، وأشفعنا قوله بالعمل ، وفى الساعة التاسعة تسلقت مع هويوز الشاطى المنحدر وتلمسنا طريقنا خلال المعبد المتعزل ، فوجدنا فى جانبه الشرقى عمودا اتخذنا منه غطاء نختبئ خلفه للمراقبة ، وربطنا الماعز - التى راحت تثغو - على بعد عدة خطوات الى الأمام ، ولبشنا منتظرين نراقب بحذر بالغ طوال ساعتين . لا شئ يتحرك ولو تحركا سيرا ، كان المرء يحس بالرهبة رغم جمال المناظر ، فالمعبد القديم بممراته العابسة والصحراء المتسدة لا يحد من امتدادها واستوائها شئ سوى بعض البقايا والأحجار ، وقد بسط عليها القمر الأفريقى سناء - انه قمر حقا لا كالقمر الأوربى الذى يشبه ضوءه ضوء المصباح اللئلى الشاحب ( السهارة ) ، وفى نور القمر الأفريقى المتألق كنور النهار يمكنك أن ترى أصغر حصاة ، فنور القمر الأفريقى لا يكفى الصياد والرياضى فحسب ، وإنما يمكن للفنان أن يرسم ويلاحظ ويتأمل فى الليالى القمرية .

ولسوء الحظ فإن الأوربيين القادمين من الذهبية ( الباخرة المجاورة لباخرتنا ) كانوا يمارسون الصيد بالقرب من مكمننا ورجعوا عائدين متجاوزين المعبد ومعهم دجاجات تصيح كانوا قد أخذوها معهم لجذب الطرائد ، ومن ثم تلاشى أملنا فى صيد ثمين فأسرعنا عائدين لباخرتنا .



ولا يمكن أبدا أن أنسى هذه الليلة المقمرة في كوم أمبو ( الاسم يعنى تل أمبو ، واسمها الهيروغليفي نوبى Nubi وتعنى مدينة الذهب ، أما الاغريق فأسموها أمبوس ( Ombus ) ببقايا معبدها ذى الجمال والجلال ، والظهور الى نصفه فى الرمال ، لا يمكن أن أنسى عاصمة الاقليم الذى حمل فيما بعد اسم أمبيتس Ombites . وهذه المدينة وهذا المعبد كانا مكروحين من سائر المصريين الآخرين ، ففى هذه المدينة كان ست set ( يقابل تيفون فى الأساطير الاغريقية ) يعبد فى أحد أشكاله ( تجسدهاته ) الرئيسية his chief embodiments لذا فإن عديدا من تماثيل التمساح ، وهو الحيوان الدال على هذا الاله ( ست ) - موجودة هنا ، كما أنها مذكورة فى الكتابات المنقوشة .

وعند الشروق غادرت سفينتنا كوم أمبو الجميلة متابعة رحلتها الى أسوان . لقد أيقنتنا روعة المشاهد على ظهر السفينة ، فقد كانت التلال المنخفضة ذوات التكوينات الجميلة تقترب اقترابا شديدا من ضفتى النهر فى مواضع كثيرة بحيث لا تترك مجالا للزراعة أو تترك مجالا ضيقا . وهنا وهناك متعنا أعيننا برؤية بساطين النخيل الرائعة والشجيرات الكثيفة وخلفها ترتفع الجبال كتلا صخرية وقطعا حجرية مكونة طبقات ذوات طبيعة خاصة .

وكلما اقتربنا من أسوان تغيرت صورة الأرض عما كانت عليه قبل ذلك حول النيل ، وأصبحت المدن أقل ، والقرى أكثر ، ولاحظنا بعض المستوطنات الزنجية Negro لقبيلة أنت من الجنوب ، مندثرة نحو الشمال ( المقصود نحو مصر ) وثمة أكواخ بائسة من القش على شكل الخيام تحت نخيل البلح ونخيل الدوم date and Dom thepan palms . لقد وطن هؤلاء السود أنفسهم فى مناطق خصبة . لقد كانت صورة للحياة الأفريقية الخالصة قدمت من أعماق القسرة ، فقد لاحظنا هؤلاء الناس من خلال التلسكوب : كانوا سودا كالفحم ، وكانوا يجيئون ويروحون بين الأشجار الخضراء وهم عراة تماما .

وبدا منظر الأرض حول ضفاف النيل يتغير كلما اقتربنا من الساعة الحادية عشرة ليصبح أكثر تطرفا وأقل استواء ، فقد بدا النيل أمامنا وكأنما طوقته كتل صخرية جبلية : كتل من الحجارة والراح من الصخر رتبش حف النور - الذى أصبح مجراى يضيق شيئا فشيئا - من الجانبين . والجبال على الضفة اليمنى ( الشرقية ) أخلت مكانها ليحل محلها سهل متفرد خال ، تتناثر فوقه كتل الصخر ويظهر خلاله بين الحين والحين أشكال مخروطية مثلثة ( غير ملساء ) ، وعلى الضفة الغربية تل مرتفع

بشكل ملحوظ يتغمس سقفه في مياه النيل ، وفوق قمته مبنى قديم ذو طابع معمارى اسلامى ، وسرعان ما ظهرت النخيل ، ومن ثم الحدائق الخضراء التي ترقد في أحضانها مدينة أسوان الصغيرة المضغوطة بين الصحراء والنيل .

### جزيرة فيلة وأسوان :

وهنا يتشعب النيل الى شعبتين ، وحيثما جزيرة فيلة Elephantine - المعروفة بغطائها النباتى المدارى - بابتسامة عند اقترابنا . كانت تحيط بالجزيرة الجذابة دائرة من العمود الجرانيتية السوداء الغادرة ، وكانت التلوات الصخرية الحادة تبرز من بين أمواج النيل حولها ، وتلك أول إشارة ( أو دلالة ) للشلالات ( الجنادل ) القادمة .

صخور ذات شقوق وصدوع ، وصحراء وعزلة ، جلال في الملامح . بهاء في الألوان بين النهر المندفع ، والتكوينات الصخرية الرائعة المهيبة ، ومدنية اسلامية خالصة حيث يختلط الاسلام (\*) وأجناس مختلطة من داخل القارة جنباً الى جنب . وآثار مصرية عريقة وجزيرة جميلة ذات طابع مدارى - كل أولئك أمامنا في هذه اللحظة . وحملتنا باعجاب في المنظر الرائع الذى يمثل المرحلة الأخيرة لرحلتنا ، بالقرب من مدار السرطان ، حافة المنطقة المدارية .

واتخذت السفينة طريقها ببطء وسط العواصف التي تعترض القناة . وما هي الا دقائق حتى رست عند شاطئ طينى شديد انحداره . وكان معنا في المرسى باخرة برية وعدة دهبيات ( بواخر نزهة ) . وبمجرد وصولنا غادرتا سفينتنا لنزور المدينة ونتفقد ما تفقد كاملاً . انها - بالتأكيد - من أكثر المواضع تشويقاً وجاذبية على مدى رحلتنا النيلية . انها مدينة عربية ذات طابع سامى Semitic غالب حقا في مبانيها ومساكنها ، وواحدة من آخر المراكز التجارية . انها مدينة اسلامية فالاسلام دين الدولة من الناحية الرسمية . لكن من الناحية الواقعية فاننى أشك في ذلك بالنسبة لهذه المدينة (\*) .

منازلها مشيدة من طين ولها - تماماً - طابع مدن مصر القديمة فالشوارع ضيقة وعقبة . الا أن الشوارع الأقرب للنهر تضم بعض المنازل الأعلى ، وبها سوق جديدة بأن يراها المرء . أما الأحياء الأخرى ( البعيدة

---

(\*) يستخدم الارشيدوق كلمة الاسلام في أكثر من موضع للدلالة على الجنس أو العرق وليس مجرد دين ، وهذا - كما لا يخفى - غير صحيح - ( المترجم ) .

نسبيا عن النهر ) فتتكون من مساكن طينية بائسة وبها أركان تتخذ كل الأشكال غير المنتظمة . ويحيط بجزئها الشرقى سور تهشم فى أكثر من جزء من أجزائه وتلتصق به بقايا مقابر اسلامية تشغل منطقة واسعة .

وكان السوق هو أول مكان نتوجه لزيارته . انه طريق مخوف من الجانبين - تماما - بالزرائب والاصطبلات ، ومسقوف بالألواح الخشبية لحجب الشمس . والتجار فى المحلات عرب بأثوابهم الشرقية الطويلة وعمائمهم . والبشر الذين يتحركون جيئة وذهابا ويحضرون بضائعهم للسوق ويتعرضون لغش الساميين الماكرين Cunning Semite وخداعهم - ليسوا شرقيين ولا حتى فلاحين . والبدو أيضا لا وجود لهم هنا ، الناس من جنس أفريقى خالص : كثيرون منهم زنوج Negroes ونوبيون داكنو البشرة ، وسلالة الاثيوبيين القدماء والعبادة والبشا Beshas ، وكل القبائل الصغيرة ذات الأصول الكوشية Kushite .

لقد وصلنا لطرف الشرق القصى ، فهنا يزدهر المكان كمدينة تجارية لنقل المنتجات الافريقية شمالا من خلال نهر النيل .

والمنتجات الشرقية الاصيلة كتلك التى رايناها فى الموسيقى فى القاهرة غير موجودة هنا ، أما المواد الخام المدارية فمطروحة بكثرة فى محلات ضيقة .

ريس نعمام أبيض ورمادى ، قرون الوعل ، جلود الأبقار الوحشية وجلود الغزلان ، وأغطية من جلود النمر وغيرها من الحيوانات المقترسة ، وبيض ، وفواكه مدارية وصمغ وبهارات وأسلحة أفريقية ، وعصى يستخدمها الجمالون ، وحلى كالتى يلبسها الزنوج وأدوات الملابس النسوة النوبيات - مثل خيوط يصنعون منها حبلا منقوعة فى سوائل ذات رائحة بشعة لطرد الذباب ، وقبعات من قش ترقيدها القبائل المتبربرة وبعض الأشياء التافهة المختلفة .

ورأيت على أبواب بيوت كثيرة تماثيل صغيرة محنطة ( محشوة ) ومثبتة بالمسامير ، كما رأيت قرودا مستأنسة تجلس عند مدخل بيوت أخرى . وقد اشتريت بنفسى واحدا منها امتعنا كثيرا وسلانا ، وهما يؤسف له أنه مات بعد ذلك فى القاهرة .

### العبادة :

لقد كانت الحياة فى السوق شائقة جدا ، وقد لفت نظرى - على نحو خاص - العبادة بمنظرهم المحارب فهو مدججون بالسلاح ملتفون

بأسماهم القليلة ، وقد صفوا شعورهم بطريقتهم الخاصة التي ذكرناها  
آنفا .

وراح الجميع ينظرون إلينا نظرات وحشية فضولية ، وقد باعنا  
العرب الماكرون بلؤمهم البارع بضائع أفريقية بأسعار باهظة . لقد ربحوا  
- بدهاء - من وجودنا بينهم .

وفي ساحة مكشوفة بين المساكن والمرسى رقص العبايدة أمامنا  
رقصة الحرب . وهذه الرقصة لا تعدو أن تكون قفزا وحشيا هنا وهناك ،  
يمارسها قوم متوحشون في أدنى درجات التطور ، والموسيقا المصاحبة  
لا تزيد عن كونها قرعاً مرعياً بتواقيس معدنية ذكرتنى بالصلصلة المصاحبة  
لرقصات العبيد الزنوج في مراکش ، لكن الرقص نفسه يشبه الرقص غير  
المنضبط الذي يمارسه قراصنة منطقة الريف في الساحل الشمالي  
الغربي لأفريقيا .

لقد كان العبايدة المحترمون يقفزون بكل ما أوتوا من قوة ويصلون  
بقفزاتهم إلى ارتفاعات لاتصدق، وهم - أثناء ذلك - يصيحون ويصرخون .  
ويهزون سيوفهم ويدفعون رماحهم بعنف عالٍ ، ويضربونها بشدة في  
تروسهم الجلدية ، ويقوم الواحد منهم بهجوم غير حقيقي على رفاقه .

لقد كان هؤلاء البشر ( المخلوقات ) ببشراتهم البنية الداكنة  
وملابسهم القليلة حتى أنه ليتمكن وصفهم بأنهم أنصاف عراة ، وبشعرهم  
الذي تتخلله قطع خشبية ، والمستشزر في كل اتجاه كأنه أشعة ،  
وبالحلقات المعدنية في أنوفهم وآذانهم وحول أذرعهم - يبدون وكأنهم  
صورة خيالية تمثل خليطاً وحشياً .

وبعد هذا العرض ركبوا جمالهم بسرعة غير مألوفة ، وقد اشترك  
الشباب منهم فقط في هذا العرض ، أما كبار السن فقد وقفوا وقد ظهرت  
أسنانهم البيض المتألقة من بين شفاههم الداكنة وابتسامة الرضا تشع  
من وجوههم . وبعد فترة عدنا للباخرة محملين بالبضائع التي اشتريناها  
وبفيض من الانطباعات الجديدة .

وأثناء تناولنا الإفطار حلقت الحشرات بأعداد كبيرة فوق السفينة ،  
اذ كانت نهمة تبحث عن قطع الخبز الملقاة في الماء ، وحتى طلقات البنادق  
لم تستطع إبعاد هذه الطيور النهمة . وبعد انتهاء وجبتنا بدأنا فوراً -  
مرة أخرى - نزهة إلى المحاجر التي حققت شهرة منذ الأزمنة القديمة .  
فركبنا بسرعة ومرونا خلال المدينة ، وعند آخر كوخ بائس بها كانت  
الصعراء الخالصة في انتظارنا برمالها البيضاء وانعكاساتها الحارقة .

الوادي عند أسوان عريض لكنه غير مستو وتحيطه التلال حيث أضرحة الأولياء .

وهنا أيضا مقابر الخلفاء وبعض الطواحين وثمة بعض شواهد القبور لكنها - أى الشواهد - بائسة لا تدل على الفخامة ، وقبور الأولياء قبورها تشبه قباب المساجد ، لكنها - أى القبور - غير مصونة صيانة جيدة .

لقد ركبنا فى الشمس المحرقة على طول الجانب الشمالى ( ٩ ) للوادي العريض خلال المقابر غير المنظمة ، لكنها أكثر جاذبية طبيعية من مقابر القاهرة الواقعة أدنى القلعة . فالتلال الجرداء التى تقترب من الوادي والصحراء ذات الأحجار البيضاء والصخور الصلدة ، والألوان الزاهية التى زاد براءها أشعة شمس الظهيرة الأفريقية - كل أولئك قد طبع المكان بطابعه .

لقد ركبنا فى الحرارة اللاهبة على طول الجانب الشمالى للوادي العريض خلال مدينة الموتى التى تعج بغوضى هائلة . وبعد برهة أضحت المقابر شيئا فشيئا أكثر تفرقا وتباعدا حتى اختفى كل أثر من عمل الإنسان .

ليس من بادرة عشب هنا تسعد العين ، فلا شيء سوى الأحجار العارية والرمال والغبار ، وفى الوقت نفسه فإن الصحراء ليست مستوية وإنما اتخذت شكل تلال يتلو بعضها بعضا .

وثمة بعض الكتل الجرانيتية ذات الأشكال المتفردة مما يشير تقريبا من الحجر . وسرعان ما وصلنا لمنحدر صخري شاهق ، أدناه مغطى على نحو ما بالأحجار المكسرة حيث توجد مسلة ، وأترك صديقى يرجس يحدثنا عنها وعن أسوان بشكل عام :

« أسوان ( بالمصرية القديمة سوان Suan وباليونانية سين Syene ) تمثل آخر مدن مصر صوب الجنوب ، ويسكنها الآن العرب والمصريون ويزورها خلق كثير من قبائل الصحراء التى تجول فى صحراء مصر الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر . وصخور المنطقة الجرانيتية التى تبدأ من هنا مغطاة بكثير من النقوش التى تعود لمختلف الحقب والتى تؤكد بوضوح مرور المسئولين المصريين عبر هذه المناطق . وبناء على أوامر الملوك الفرعونية فإن المحاجر الثرية الواقعة الى الجنوب الشرقى من أسوان ( والتى تعرف باسم الجبل الأحمر ) قد عمل بها آلاف العمال راحوا يقطعون منها الأحجار لعمل المسلات والتماثيل والمعابد والألواح الحجرية

المختلفة . وثمة مسألة لم تكتمل مطروحة هنا تنتظر — عينا — تعليمات منشئها .

ومنذ أيام الفراغنة تعرضت هذه المحاجر للاهمال ، فالمنحدر الصخري المهشم وكتل الصخر المنزوعة منه نجم شواهد على حضارة انتهت منذ عهود سحيقة كانت موجودة في هذه المنطقة منذ آلاف السنين .

وعند مدينة الموتى ( المقابر ) انقسمت مجموعتنا الى قسمين : مجموعة ركبت عائدة للباخرة ، بينما تسلمت أنا مع هويوز تلا متوسط الارتفاع صخوريا أجرد تماما يحيط بالوادي قرب أسوان .

وعلى قمة التل يقع قبر أحد الأولياء ( الشيوخ ) على شكل مبنى له عقود دائرية ، وكنا قد وضعنا في وقت سابق ذبيحة ( طعما ) الى جواره لجلب النسور التي تحلق عاليا .

وكنا في موقع ممتاز ، وما هي الا دقائق حتى راحت الحدبات ونسور الجيف تأكل في الخروف الميت ، ولم تصل الجوارح الكبيرة فاكتفيت بإطلاق بندقيتي على واحد من نسور الجيف فلم يكن لدينا الوقت الكافي للانتظار .

وخرجنا من القبور العابسة فاستمتعت عيوننا بمنظر سننى تماما ، فالى الشمال — أدنى منا مباشرة — يقع وادى النيل الضيق تحيطه الجبال ، فالنهر يشق طريقه خلال شقوق الجنادل ( الشلالات ) شقا ، وخلفه جزيرة فيلة المدارية وأسوان ذات الموقع الجميل ، ومدينة الموتى العابسة ، وحول كل ذلك — غير بعيد عنه — ما لا حصر له من الجبال والوديان والسهول والهضاب والتلال المنعزلة الجرداء وصحراء الرمال الحقيقية — كل أولئك قد لمست أشعة الشمس الحمراء ، فغدا أبيض محمرا ، لا يقطع هذا اللون ويحول دون استمراره سوى بعض الصخور البرتقالية أو الجرانيتية السوداء ، هنا وهناك ، ومن فوقنا سماء زرقاء خالصة الزرقة راققة كالبلور لا تعكرها سحابة . وعدنا بسرعة الى أسوان .

وسأحسن صنعنا فأتروا برجش باشا يحدثنا عن جزيرة فيلة :

« فيلة بمقياسها الذى يعود للعصر الرومانى ، وبآثارها التى تعود لبواكير التاريخ المصرى — لا يزورها المسافرون الآن الا للاستمتاع لموقعها الجميل المتميز عند مدخل بوابة الجنادل ( الشلالات ) ، فقد ولت عظمتها السابقة منذ انمجت عاصمة منطقة النوبة — التى كانت قائمة فوق الجزيرة — بما فيها من تماثيل ومعابد :

ففى هذه البقعة كانت توجد حتى العصر الرومانى حامية قوية ، كان منوطا بها حماية المنطقة من الغارات القادمة من الجنوب . والسور القديم فى الطريق من أسوان الى جزيرة فيلة شيد للغرض نفسه ، فهو بمثابة متاريس ضد غارات السلب القادمة من الجنوب ، وبقيايا هذا السور - المظبور نصفه فى الرمال - يمكن حتى الآن تتبعها .

وغادرت مع هويوز - مرة أخرى - سفينتنا ، فقد كانت الشمس تغرب وماجت المنطقة فى فيض من الألوان الجميلة .

وقادنا رجل نوبى فى ثوب أبيض ويحمل بندقية طويلة ، ومعروف كصياد فى أسوان - قادنا خلال المدينة حتى وصل بنا الى أبعد منازلها ، وتصحنا أن نكمن هناك لدقائق قليلة لأن الحيوانات المفترسة تنتظر بطرائقها خارج أسوان كل ليلة بعيد الغروب .

الكلاب تنبح ، والأطفال يصرخون ، وجماعة من العبادة يصيحون وهم فى طريقهم لمساكنهم فى الصحراء ، ورغم كل ذلك ظهر واحد من حيوانات ابن آوى على تل صغير واختفى سريعا بين الأحجار . ولأن حمرة الشفق أخذت فى التلاشى فقد أسرعنا داخل مدينة الموتى ( المقابر ) ، كان ابن آوى يجرى غير بعيد فأطلقت بندقيتى فتمدد . وبالقرب من منبعج التل - الذى أطلقت فوق قمته بندقيتى بعد الظهر فأصبحت واحدا من نسور الجيف - وغير بعيد عن آخر القبور ، يوجد حوض قديم تحفه التلال الرملية فى واد صغير .

وكنا قد أمرنا بوضع طعم ( ذبيحة أو حيوان ميت ) فى هذا المكان ، وكنا فى موضع مجوف ، كان القمر مرتفعا يضر بنوره المنظر الجليل المخيف ، فقد كان الصمت والموت يحكما المكان ، صحراء ومقابر شيوخ ( أولياء ) قداماء وقياب وشواهد حزينة . ليس من صوت يقطع حبل الصمت سوى نباح كلاب القرية وعواء حيوانات ابن آوى .

لقد مكثنا - بشق الأنفس - حوالى نصف الساعة فى هذا المكان غير المريح فأحسست بحفيف حيوان يأتى نحوى ، ورايته يتحرك كالظل أكثر من مرة ، فلما اقترب وظهر شكله الخارجى صوبت بالبنقة التى أستطيعها وأطلقت لأجرب حظى ، فكان صوت عواء مزير حزين هو اجابة طلقتى ، فلما أسرعته اليه وجدت أننى أصبت ذئبا يبذل قصارى جهده - بالمر - ليؤخف بعيدا ، فالقمت الحيوان المتين العنيد طلقة أخرى فانطرح أرضا .

وجملته فى حقيبتى وسرت نحو رفيقى مائة خطوة فقد كان يكمن فى مكان آخر ، لقد كان الذئب الذى يبدو وكأنه مات - ثقيلًا ، وكانت حرارة الليل شديدة ، فطرحته حملى وانتظرت حتى يأتينى الصياد النوبى .

وما هي الا ثوان بعد ان طرحت حمل على الأرض حتى تحرك الذئب مرة أخرى وناضل حتى وقف على قدميه لكن طلقة ثالثة أخمدته للأبد .

وسرنا الآن يغنيمتنا الكبيرة المكونة من ذئب وواحد من حيوانات ابن آوى ، وعدنا للسفينة حيث تناولنا عشاءنا ، أما بالنسبة للدوق الكبير واشنباخر فقد كمننا في مبنى على شكل قبة في الجانب الآخر من المقابر . لكنهما لم يحققا ... لسوء الحظ ... نجاحا .

وفي الثامن من شهر مارس بدأنا في الساعة السابعة صباحا . فركب معظمنا خميرا ، أما أنا وهويز ففضلنا أن نجرب ركوب الجمال ، ودربنا حول أسوان ووصلنا سالكين طريقا موجزا - عبر المقابر - إلى الصحراء . كانت الوديان والتلال والرمال والصخور والمسيلات تتعاقب تعاقبا بعث فينا البهجة .

وأدى بنا مسيل عميق إلى الوادي الضيق للنيل الذي تحفه تلال مختلفة خشنة على جوانبها كتل جرانيتية سوداء ، ومن موقع وقفنا فيه - كيفما اتفق - طالعت عيوننا منظرا رائعا : كتل صخرية داكنة عابسة ، النهر يندفع بسرعة خلال المضائق ، جزيرة فيلة الخضراء ، والبقايا الشامخة لمايها ، وإلى الجنوب يصبح الوادي عريضا وعلى ضفتيه ذروع كثيفة . كل هذا تجلي أمامنا في لحظة . اننا في التوبة ، وبالقرب من الجزيرة تقع قرية نوبية بائسة من أكواخ طينية . انها قرية شلال Sha'lal ، وخرج كل أهل القرية بشياهم كاملة أو بشياهم الداخلية - من مساكنهم البائسة .

ومررنا على طول صخور داكنة وأشجار جميز حزيننة ونخيل حتى وصلنا لسهل صغير فوجدنا بعض القوارب ، وثمة بعض الجنود النوبيين في ثيابهم الرسمية يقفون للحراسة ، وكانت ملابسهم بيضاء خالصة ومصممة تصميميا أوربيا . وللوهلة الأولى سعدنا بقربنا من جزيرة فيلة الجميلة التي قدمت لنا نفسها محاطة بكتل صخرية ملونة تنبثق من الماء ، وركبنا قاربا كبيرا مرتفعة جوانبه وجدف بنا عدد من النوبيين راحوا يغتوون وعبروا بنا للجزيرة .

أما شكل القارب فقديم وبما يعود تصميمه إلى أيام كليوباترا . كانت مقصورة القارب بأرائكها الناعمة وستائرهما الحمراء التي تحمي من الشمس قد جعلتنا نضحك من هذا القارب الذي يقوم بدور البارجة النيلية .



وفى غضون دقائق قليلة وصلنا لشاطئ الجزيرة المنحدر وأسرعنا صاعدين المنحدر - بشجراته الكثيفة - نحو المعبد الجميل .

ومباني المعبد فى هذه الجزيرة الجميلة التى كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم بيلاك Pilak - تعد حديثة نسبيا ، فقد تم تشييدها فى ظل البطالة والرومان على نسق التصميمات القديمة ، وقد تم تشييد المراسى الحجرية للسفن فى الجزيرة بطريقة تنبئ عن معرفة عملية بطبيعة النهر ( عمارة النهر river architecture ) - خاصة أن الجزيرة غير بعيدة عن المساقط المائية waterfalls والتيارات المائية العنيفة . ومع أن أبنية المعابد فى الجزيرة ذات قيمة غير عالية - على نحو ما ، إلا أن تأثيرها الكلى وصفوف أعمدتها ، ومبانيها ذات الصحن ( الباحات المكشوفة ) ، وسط بقايا المنازل المتهدمة والنخيل والشجر الأخضر الجميل - كل ذلك حباها جمالا لا يمكن التعبير عنه . فسطوح المعبد ترتفع فى تناقض مذهش مع الكتل الصخرية الداكنة التى تحيط فى هذا الموضع بالجانب الآخر من مجرى النهر . وفوقنا القبة السماوية الزرقاء فى بلاد الجنوب هذه بتورها المتألق الذى يثمر المشهد كله . كل شئ من بقايا العالم القديم لم ينمح تماما - يوج فى النور .

راعية بلاد النوبة - الربة ايزيس Isis - كانت تحظى بقداسة خاصة فى هذا المكان . فالمصريون والنوبيون - على سواء - كانوا يضحون على مذبحها ويوقرونها . ويقدم معيها برسومه المتألقة على الجدران والأعمدة - حتى الآن - فكرة واضحة عن هذه العبادة - بألوان زاهية ! .

وعندما هجرت معابد ايزيس وغمرها النسيان ، شيدت المسيحية الوليدة هنا إحدى أقدم كنائسها وكان البرابرة النوبيون Nubian Ba-abras يزورونها ( يحجون إليها ) بحماسة دينية . أما الآن فانهم قد هجروا عقيدة آبائهم المسيحية وذكرى عقبتهم الأولى التى لم يبق لها أثر إلا فى كلمة من كلمات لغتهم وهى كلمة كيرى Kiraye ( باليونانية Kyriake ) وتعنى يوم الأحد .

فالبرابرة ( النوبيون ) أصبحوا الآن مسلمين بكل ما فى الكلمة من معنى ، لكن موطنهم القديم - وجزيرة فيلة فى وسطه - بقى كما هو .

وبعد أن زرنا كل أرجاء المعبد اتجهنا الى أقصى الطرف الجنوبي للجزيرة عبر بقايا كثير من الجدران والأسوار القديمة .

وفي الطرف الجنوبي للجزيرة ثمة درجات من أحجار داكنة تفضي للنهر ، من بينها منبسطة ( حجر منبسطة ) يعود للتاريخ المصري القديم ، وثمة حشائش طويلة وشجيرات كثيفة تنمو حول هذا الحجر الداكن .

ويقلب حزين آسف تسلقت - بجهد - آخر حدود المنحدر - وألقيت نظرة على التل المقدس والوادي العريض وحقول التسوية . لقد وصلنا لآخر نقطة قررناها لرحلتنا في هذه الأنحاء صوب الجنوب .

ميدان السرطان ، حدود النوبة ، والكوكبة الجنوبية Southern Cross ، والقبعة السماوية الزرقاء الصافية - كل أولئك كان يغرينا بالاستمرار جنوبا لكن كان علينا أن نعود متجهين شمالا ، فعدنا واجعت لعيد أيزيس ، وقلوبنا مثقلة حزينة .

\*\*\*

## تعليقات المترجم على الفصل الرابع

(١) عالم الماني في الآثار المصرية ، عمل ناظرا لمدرسة اللسان المصري القديم ( اللغة الهيروغليفية ) التي أنشئت سنة ١٨٦٩ وأقيمت سنة ١٨٧٦ ، وقد تخرج في هذه المدرسة بعض علماء الآثار منهم أحمد كمال باشا ، وقد أثرى برجهش باشا هذه الرحلة بترجمة كثير من النصوص الأثرية المهمة .

عبد الرحمن الرفاعي : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) نجد في كتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية دراسة مفصلة عن الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين الحديثين ، وفيما يلي موجز لهذه الآلات كما وردت في الترجمة العربية التي قام عليها الأستاذ زهير الشايب ( ج ٩ ) .

— العود :

قدم بعض علماء الحملة الفرنسية دراسة تفصيلية عنه ذات طابع تاريخي وهي ، ورغم الاختلاف في التفاصيل فلا نجد لها تختلف عن الآلة المعروفة بيننا الآن بهذا الاسم ذاته راجع التفاصيل في ترجمة زهير الشايب ج ٩ ( ص ١٥ - ٤٠ ) .

— الطنبور التركي الكبير :

يطلق اسم الطنبور على آلة موسيقية تشبه الماندولين في أوروبا ، وأوتار الطنبور معدنية ولها ملابس ثابتة تتكون من ثلثين عدة ويستخدم العازقون عليها ريشة عزف من قطعة خشب ملساء أو ريشة تسر جافة - ( ص ٤٢ ) .

— الطنبور الشرقي :

وصلت هذه الآلة لمصر - غالبا - من آسيا ، وربما من فارس بالتحديد وهو يشبه الكمثرى ويميل إلى التسطح بعض الشيء ، وبها ٢١ ملصا ، وخمسة أوتار ثلاثة منها من النحاس الأصفر واثنان من الصلب ( ص ٦٢-٧٢ ) .

— الطنبور البلغاري وهي بالتمام الماندولين البلغاري ، وهي آلة تغطي بكثير من الزخارف ، وهو أصغر حجما من الطنبور التركي الكبير ، والطنبور الشرقي ، وله ١٢ ملصا من أوتار معى الحيوان ، ولها ثلاثة أوتار من الصلب ووتر من النحاس - ( ص ٧٥ - ٧٧ ) .

— طنبور البزرك ( بفتح الباء والراء ) :

وكلمة بزرك تعنى بالفارسية الكبير ، لذا فهذه الآلة بمثابة ماندولين كبير فارسي ، وهي أكثر تعقيدا من الطنبور الشرقي وأكثر بصاطة من الطنبور التركي الكبير ، وله ستة أوتار ( عسايفر ) وستة أوتار وسبعة وثلاثون ملصا وهو يشبه نصف ثمرة الكمثرى ( ص ٨١ ) .

رحلة - ج ٢ - ٤٩

– طنبور البغلمة ( يفتح الباب ) وهو مصغر الطنبور البرزك ( ص ٧٩١ ) •

– الكمنجة الرومى ( اليونانى ) ، وهى الكمان المعروفة Violon •

– القانون •

– السنطير ( وتكتب بالصاد أيضا ) ، وهى آلة يشيخ استخدامها بين المسيحيين واليهود ، ويتكون من صندوق مسطح مصنوع من الخشب على شكل معين وله جانبتان مائلتان وله وتران من معدن ينقران بعضاتين صغيرتين من الخشب – ( ص ص ١٤٢ – ١٤٣ ) •

– الكمنجة العجوز ، والكمنجة الفرخ أو الصغيرة – ( ص ص ١٥٠ – ١٧٧ ) •

– ربابه الشاعر ( بوتر واحد ) وريابه المظى ( بوترين ) ( ص ١٨٢ ) •

– الكيسار ( القيثارة الاثيوبية ) ، وهى منتشرة بين الاثيوبيين والنوبيين الذين يعملون كبوابين وحراس للمحال • وتسمى وحيانا جيزركة فى النوبة ( ص ص ١٩٥ – ٢٢٠ ) •

– المزمار المصرى ( ص ص ٢٢٥ – ٢٤٧ ) •

– البوق ( أو النفير ) ص ص ( ٢٦٢ – ٢٧٥ ) •

– الناي المصرى ذو المنقار ( شبابة ) ( ص ص ٢٧٥ – ٢٨٠ ) •

– مزامير القرب – ( ص ٢٢٦ ) •

– آلات الايقاع الصاخبة ، وسنطيل العرض فى هذه الفقرة من الحاشية لأن الآلات المذكورة هنا هى التى أشار اليها الأمير عند زيارته للفرق الدراويش أو الطرق الصوفية ، الصلاصل أو الجلاجل أو الصنوج والضارب على الصنوج يسمونه ( صناج ) • وتستخدم الراقصات المصريات الكاسات والمفرد كاس وتسمى أيضا الصلجات ، وهناك الدفوف وهو على أنواع منها الطار والرق • وثمة سبعة أنواع من الطبول يهمننا منها طبله المسحر وطبله الشيخ وتسمى طبله المسحر باسم الباز ويتم الضرب عليها بعضى صغيرة من الخشب ويسمى كثير من الطرق الصوفية ( طوائف الفقرا ) التى تنظم حركاتهم ورقصاتهم أو ألكارهم على صوت هذه الآلة ، وهو ما تفعله على سبيل المثال طرق الملاوية ( نسبة الى جلال الدين الملاوى من ملاوى بالقرب ) والشناوية ( طريقة أحمد البدرى ) والعلوانية ( يضربون أنفسهم بالسكاكين والأحجار فى مناسبات معينة ) والبرهامية ( طريقة ابراهيم الدسوقي ) والسعدية ( نسبة الى سعد الدين الشيباوى من العراق ) والخلوتية ( أسسها أبو اليزيد البرهامى ) الخ •

( ٢ ) لا يختلف رأى ريلف فى الرقصات المصريات عن رأى علماء الحملة الفرنسية ، يقول فيوتو أحد علماء الحملة : « ... أنهم يقمن بالغناء بمصاحبة نوع من الدفوف تسمى بالعربية : طار أو نريكة ... والراقصات العموميات يسمون بالغوازي ، ويظهون فى الأماكن المطروقة كثيرا ... ورقصاتهن لا تقبل سوى مشاهد مثيرة للنساء ... ومن العسير أن نصف هذا النوع من الرقص بلغتنا فى ثقة فلا أحد يستطيع أن يتخيل مدى غش حركاته ، ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القميين وأعلى الجسم بالكبر التبدلات جسارة – عن الانفعالات الجامحة التى يمكن أن تحدثها الشهوة فى النفس ... والأفعال التى يمكن أن تؤدى إلى تصاعد عاطفة شديدة وبغدغة بالغة القوة لدرجة حسنة ملححة ... وتكاد تحاكي تشنجات الوصال ... وتمثل كل ما فى الخلاعة من عهر ... انه

بمثابة تمثيل صامت خليع .. ويصاحب الرقص رنات الأجرام النوبية .. وتمسك  
الراقصات بالصنّاج بين أصابعهن ... »

وصف مصر ج ٨ من ص ١٥٥ - ١٥٨ .

(٤) تشير كتب التاريخ القديم المتداولة الى أن سيزوستريس هو سنوسرت الثالث ، من  
الأسرة ١٢ ، وأنه أمن حدود مصر الجنوبية حتى ما وراء الجندل الثاني وأسس لذلك  
قلعتي سمّة وقمّة ، وأنه ظهر مجرى النيل الى منطقة الجندل الأول لييسر إبحار السفن  
وأنه وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة عرفت باسمه « قناة سنوسرت » وأسماها اليونانيون  
قناة سيزوستريس وهم أسم سنوسرت باليونانية .

(٥) يقول دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية بصدد حديثه عن  
القصير وما حولها : « ... ولا يزال يعيش في هذه المنطقة ( الصحراء  
الشرقية ) شعب يستحق - بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى - أن يدخل في  
بعض التفاصيل عن عاداته وتقاليده ، وتقتصد بهذه المجموعة البشرية : العبايدة ، وهم  
أبناء قبيلة جواية تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من النيل ، في جنوب وادي القصير  
وهي منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم « سكان الكهوف » ، Troglodytique .  
وتملك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن ( الشرقى ) للنيل أهمها دراو ،  
والشيخ عامر ، والرئيسية . ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبايدة  
مبلغ ٧٣ مئنة عن الجمل المحمل ومكسالا سنيرا ( ٢٤/١ من الأرنب ) من القمح أو  
القول أو النقيق أو الشعير - حسبما يحصل الجمل - كما يأخذ العبايدة عيناً ٢٠/١ من  
الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى من تلك الأنواع التي تصل الى القصير .  
وقد أقام هؤلاء مخيمهم الذي نصبوه في ضواحي هذه المدينة ( القصير ) بقصد منع أي  
نوع من التهريب من الاتاوة ، وكان العبايدة حازمين في مقابل هذا بالمهر على تأمين الطريق  
وحماية القوافل ، ولكنهم لا يتعهدون مطلقاً بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التي يمكن أن  
تأتي من جانب عربان الحويطات الذين ينتشرون في هذه الصحراوات حتى قلزم السويس ،  
وتتدد بين هاتين القبيلتين ( العبايدة والحويطات ) حرب مستمرة منذ زمان لا تحسب  
الذاكرة .

وفي وقت معين عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى التي يقدمها التجار  
أكواماً هائلة وسط المخيم ، يكثر عدد العبايدة الذين يجتمعون لتقسيمها بينهم ولا يخلو الأمر  
من مشاحنات .

وعند الخيول لديهم قليل ، فهم لا يركبون الا الهجين ... ولا تشبه سروجهم السروج  
المستخدمة في مصر إذ تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة بسيور من جلد ... وفي  
العادة يمسك فوقه فرو خروف .. ومن فوق هذه السروج لا تتبلى ساقا الراكب كما  
يحدث للفارس المعتطي حصاناً ، ولكنه يكرن جالساً وساقاه ممدتان للأمام : تستقران  
أو تتشابكان فوق رقبة الحصان . ويربى العبايدة عدداً هائلاً من الجمال ... والعبايدة  
مسلمون ، ولكن البلاد التي يقطنونها والحياة النشطة التي يحيونها على الدوام لا تمكنهم  
من اتباع كل مبادئ الإسلام بدقة وإخلاص ... ويتباهى العبايدة بأنهم شعب محارب ،  
لذا سأل أي واحد منهم عن نفسه بأمر قائلاً : أنا جندي ... ويزعمون أنه يمكنهم  
تجهيز إلى رجل رجل تحت السلاح وقد يكون في هذا مبالغة .

... ويختلف العبايدة اختلافاً تاماً في تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم وينتبه من  
القبائل العربية التي تشغل - مثلهم الصحراوات التي تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة

يخلقون رؤوسهم ويرتدون العمامة ولديهم أسلحة نارية ورمح يبلغ طول الواحد منها من أربعة إلى خمسة أمتار وسيوف مقوسة ٠٠٠ أما العبايدة فسود البشرة لكن ملامحهم تتشابه كثيرا مع ملامح الأوربيين وشعرهم جعد بشكل طبيعي لكنه ليس كبير الصوف وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم إذ هم لا يخلقون رؤوسهم مطلقا ، ( لم يشر إلى قطع الخشب في رؤوسهم كما تحدث ريدولف ، ولعل ريدولف رأى ثقافة منهم على هذا النحو ) وتنحصر ملابسهم في قطعة من القماش يعقدونها أعلى الكتفين ولا تتدلى أبعد من منتصف الفخذين ٠٠٠ ويدهنون أجسامهم بالدهون ويضعون كمية منه فوق رؤوسهم ٠٠ وشيوخهم هم وحدهم الذين يرتدون العمامة في بعض الأحيان بالإضافة إلى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب ٠ وليست لدى العبايدة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ إلى ١٨٠ سم وسيوف مستقيم ذي حدين وبسكين مقوسة يعلقها الواحد منهم في ذراعه اليسرى ويحمل ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ما بين ٦٠ و ٧٠ سم ٠ ويعرف العبايدة اللغة العربية بالإضافة إلى لغتهم الخاصة ، وربما كان العبايدة منحدرين من أصلاّب تلك الشعوب الجوالّة التي كانت تمتلك هذه المناطق في الزمن القديم والتي حسبنا عنها المؤلفون القدامى مثل استرابون ودويودور الصقلي ( هذا الاستدناء يناقض ما ذكره ريدولف ونكر أنه سمعه منهم وهو أنهم كوشيون من أصول آسيوية ) فالصفات التي ذكرها المؤلفون القدامى تنطبق عليهم ، فقد وصفهم بأنهم سكان الكهوف وأنهم كانوا يحملون من السلاح درعا مستديرة من الجلد ورمحا وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكتفين ، كما كانوا يمارسون الختان ٠ وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون الحجارة فوق الجثة حتى تغطى بشكل تام ، ولإزالة العبايدة حتى اليوم يمارسون الطريقة نفسها في الدفن ٠٠ وقد لفت البعض نظري في وادي القصير إلى أكوام عديدة من الحجارة كانت هي مقابر لبعض العبايدة الذين قتلوا في المعارك ، ورأيت أيضا في منتصف الطريق ٠ على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ٠ تلالا من الحجارة ، وقيل لي أنه من المحتمل أن هذه الأحجار تغطي جثة أحد أثرياء التجار قتله العريان ٠٠٠٠ ولم نشاهد أية خيمة في معسكر العبايدة بالقرب من القصير ٠ ففي أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس يضع الرجل منهم مرج جملة ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثل السرج ٠ في الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعمتين سيفه ورمحه ثم ييسط فوق ذلك كله جلد خروف ٠ وهكذا ينهض البيت الذي قلما يبلغ ارتفاعه في الواقع أكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات ، ولا يستطيع الرجل بداخله إلا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس في كهوف صغيرة كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ٠ ولم نشاهد في هذا المعسكر نساء على الإطلاق ، ومن المحتمل ٠ إلى حد كبير ٠ أن تكون الأكواخ والخيام في المعسكرات التي توجد بها النساء أكثر من تلك اتساعا ٠٠٠٠ وليس للرقص عند العبايدة أية علاقة بذلك الرقص الشهواني الخليع لدى المصريين ٠ فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبازرات ، فيتمسح الراقصون بالرمح والدروع ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة وتجلّى المهارة في الدفاع عن النزع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ٠ وفي كثير من الأحيان يتدفع أحد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينفي أن يجيب عليها بكلمة : عبايدة ! وعندئذ يتعد الراقص عنه ويواصل رقصه ٠٠٠٠ ٠

(٦) عن البرك التي يتحدث عنها رسولف في هذا الموضع وفي مواضع أخرى ، يورد علماء الحملة الفرنسية أن نظام الري المصرى القائم على الغمر أثناء الفيضان ، وعلى التحكم في توزيع مياهه - أى الفيضان - من خلال سلسلة من الجسور الترابية ، يؤدي إلى تكوين سلسلة من البرك مع انحدار النهر ، وبعد انحسار مياه الفيضان تظل بعض هذه البرك أو التجمعات المائية في الأماكن الأكثر انخفاضاً أو في الأماكن ذات التربة غير المسامية التي لا تسمح بتسرب المياه .

انظر تفصيل ذلك في دراسة ب-س- جيران في كتاب وصف مصر الاتف ذكره .

ترجمة زهير الشايب ج ٤ ص ١٥ .

(٧) الكاب الحالية بالقرب من انفور بمحافظة قنا - واسمها القديم نخب . وكانت عاصمة لمملكة الوجه القبلى أو مملكة الجندب قبل أن يوحده مينا ( نارمر أو نعرمر ) مصر في مملكة واحدة وكان شعارها زهرة اللوتس ، ولون تاج ملكها أبيض .

## الفصل الخامس

من فيله الى اسيوط - نظرة على اسوان - النوبيون -  
ارتظام بقاع النيل - كوم الأمير - الكاب - كلاب مصر -  
ارمنت - الوصصول للأقصر - مقابر الملوك - نقوش  
يقرأها برجش - قنا - سوهاج - الى اسيوط - ركوب  
القطار من اسيوط - الوصول للبدرشين - منف وحديث  
أثرى - عن الأهرامات وأبى الهول - خلاف مع أغا  
( طواشى ) فقط - وعدنا للقاهرة الجميلة - رسوم الفنان  
بوسنجر - تعليقات المترجم \*

تناولنا افطارنا - الذى جلبناه معنا - فى أحد الأجنحة القديمة  
للمعبد الذى كان لا يزال محتفظا بروثقه القديم ، ويقع جناح المعبد هذا على  
جسر مرتفع ، وثمة شرفة أمامه ترتفع شامخة الى أعلى من مستوى النهر  
ذى الأمواج التى تملأها الزبد \*

لقد استمتعنا بالقضاء نظرة من أعلى على جمال فائق غير مألوف ،  
وذلك من خلال بوابة إحدى القاعات ذات الأعمدة \* ان الصحراء تنشد  
أشعارا رائعة لا يمكن وصف روعتها ، ويشع عقب التاريخ من بقايا مضت  
عليها عصور سحيقة من جزيرة ذات خضرة بهية تقبع وسط الجرى  
المقدس \* ان فيلة صورة لا يمكن أن تنسى وانما تقبع للأبد - كبقعة نور -  
فى الذاكرة \*

لقد هبطنا من المعبد الى الشاطئ واتخذنا سبيلنا فى النهر تجاه  
الجنادل فى قارب قديم طرازه ، وصصفناه لتونا \* وظللنا لفترة نتأمل  
الجزيرة الصخرية والجرانيت الأسود والنباتات المزهرة ، والمعبد الشامخ ،  
وغنى المجدفون ذوو البشرة الداكنة أغاني حزينة تشكل تكاملا هارمونيا  
مع عظمة المنظر المثير للمعاطفة \*

وقبل أن نصل بالفصل للجنادل التى تقسم النهر الى مجار متعددة  
رسونا بقاربينا وسرنا على طول الشاطئ الصخرى حتى وصلنا لبقعة  
يمكننا منها أن نلقى نظرة على الصخور الشامخة والمياه المتلاطمة أمواجها ،  
ولا تسبب هذه الجنادل شلالات وانما منحدرات تتسبب فى تدفق المياه  
تدفقا سريعا rapids \* ان آلاف الجزر الصخرية الصغيرة والجروف



Cliffs والحيود riffs . تملأ مجرى النهر لأكثر من كيلو متر ، ويبدو النهر - وكل ذلك يفترض طريقه - يرغى ويزبد ويزار وهو يشق طريقه ، انه بلا شك منظر مهيب يزيد من جماله ذلك اللون الاسود وأشكال الحيود والمخاضات بين الصخور التي ترتفع بين المياه ذات الزبد الأبيض ، انه لأمر شائق أيضا أن ترى النيل الوديع الهادئ قد تحول في هذه المنطقة من المجرى الى نهر جبلى عنيف .

### التوبيون :

وفي اللحظة التي وصلنا فيها الى أفضل نقطة تمكنا من رؤية المشهد ، ظهر عدد من التوبيين المرأة وقفزوا بين الأمواج متجنبين الصخور وألقوا بأنفسهم بين أكثر الأمواج صخبا وأشد التيارات سرعة . وفي ثوان قليلة وصلوا للشاطئ ، وكأنهم سهام انطلقت من أقواسها ، ثم زحفوا خارجين من الماء ليصلوا اليها طالبي البقشيش وهم يقطرون ماء وقد أحدثوا جلبة وصخبا . وعدنا للقارب وجدفنا مسافة قصيرة صاعدين في النهر ثم ركبنا الحدير التي كانت في انتظارنا وعدنا الى أسوان من الطريق نفسه الذي قدمنا منه صباحا .

استغرقت الرحلة طوال النهار ، ولم نصل الى ياخرتنا الا قبيل الغروب فتناولنا غداءنا ، وبعد ذلك ذهبت أنا وهويوز Hoyos - مرة أخرى - عند الشفق عند مواضع القنص التي كنا فيها البارحة . وقد اضطرنا مساعد الصياد التابع لي لذلك لأننا عندما كنا في قيلة استنتج وجود ضياع - عند ملاحظته لآثارها حول بقايا بعض الجيف .

كان الليل لطيفا واقتربت الا نطلق النار على أية طريدة اقل من ضبع ، فلننتظر اذن حتى تظهر الضياع حتى لو قضينا شطرا طويلا من الليل . وظهرت بعض حيوانات ابن آوى فتركناها تمر بلا ازعاج منا وبينما كان منتصف الليل يزحف مقتربا - وكنت أخوض معركة شرسة مقاوما النوم - رأيت بفضل نور القمر الساطع بعض البشر يزحفون غير بعيد عن مكمنى ، وسرعان ما سمعت بعد ذلك عدة طلقات قوقاء ( بفتح القاف وتسكين الواو ) النجاج - ذلك الصوت المألوف . لقد وقعت دجاجات في شرك هؤلاء البشر الزاحفين .

والآن لقد أخلت هذه الضجة بما يتطلبه قنص الضياع من هدوء وسكون كاملين . وبدلا من أن أضيع وقتي هباء رجعت الى مقر إقامتي وقابلت المترجم يولووتش Paulowich لقاء عابرا ، وكان لبسوه الحظ مع البارون سكيندورف Seckendorf . في البقعة نفسها التي كنت فيها .

وكان هويوز Hoyos قد قتل ابن آوى وجرح آخر فى مكانه القريب من المدينة . كما أن كلا من اللوق الكبير ، وايشنباشر Eschenbacher قد أحاطت بهما حيوانات ابن آوى وهى تعسوى . وحدث هذا فى الوقت نفسه . فاضطر كل واحد منهما للانطراح أرضا بشكل غير ملائم لاطلاق النار . وبينما كنت عائدا فى منتصف الليل تمكنت من القاء نظرة على مدينة أسوان ، ونهر النيل وجزيرة فيله . انه منظر رائع فى حاجة الى ريشة فنان ، لقله بدا المنظر - فى فيض نور القمر المتألق السحري - لا ينسى .

### ارتظام فى قاع النيل :

وفى الساعة الثامنة صباح اليوم التاسع من شهر مارس غادرت السفينة البخارية أسوان . ان هذه المدينة الواقعة وسط أفريقيا ، والمتسمة بالبهجة تستحق اهتماما كاملا من الناحية الانتوجرافية ، لقد انطلقت باخرتنا فى النيل بأقصى سرعة ورأينا مناظر اوضحت معروفة لنا ، ومرت الوقت سريعا وانتهزنا فرصة رحلة العودة هذه لترتيب ما جمعناه من ملاحظات ، وفى الظهر جلسنا فى القمرة ( الكابينة ) وتوقفت السفينة فجأة وبعتف ، ولم نستوعب كيف أن سفينة بخارية كبيرة يرتطم قاعها فى طمي قاع النهر . لقد ارتطمت سفينتنا بقاع النهر ونحن نبحر فى وسط المجرى صعدا . وكنا قد تحاشينا الابحار قرب الشاطئ لأن كل البواخر النيلية تجنح عند رمال الشاطئ - وعلى أية حال فان ارتظام سفينتنا فى المرات السابقة لم يكن بالحدة نفسها التى كان عليها الانتظام هذه المرة نظرا لأننا كنا فى طريق العودة حيث ينحدر النهر من الجنوب للشمال .

وأعلن ربان السفينة العجوز أن الأمر يتطلب ساعتين على الأقل لتطفو السفينة من جديد . لذا فقد انتقلنا للشاطئ عند بقعة تسمى كوم الأمير Kom el-Emir حيث تقترب الجبال العالية الصخرية من المجرى وتنحدر عليه انحدارا حادا ، لكن شريطا ضيقا جميلا من الأرض المزروعة جعل للمكان روحا كروح السهول .

وتفرق جمعنا فى مختلف الاتجاهات يترضون ، وقد حاولت - فى البداية - أن أزحف صاعدا الصخور الجرداء لأصل الى بعض الطيور الجارحة لكننى لم أفعل ، لذا فقد فضلت أن أمارس الصيد بين أشجار السهل وعلى شاطئ النهر . لقد اصطدت خلال هذه الرحلة القصيرة يمامة صغيرة كانت ألوانها مذهشة ، انها حقا من طيور وسط أفريقيا ،

وكانت فى حجم القنبرة ، ولها ذيل طويل • يالها من مخلوق مدهى .  
جنداب ! •

وبينما كنت أبحث على الشاطئ الرملى عن الطيور لاحظت أن  
سفینتنا البخارية أصبحت جاهزة لمتابعة الرحلة بعد ساعتين من محاولات  
تعويمها ، فركبنا قواربنا وجدفنا عائدين وتابعنا الرحلة التى قطعناها هذه  
النزهة الباعثة على السرور •

### الكتاب :

وفى المساء - بعد غروب الشمس - رست سفینتنا عند الكاب  
El-Kab (١) على الشاطئ الشرقى • ويفصل - هنا - شريط ضيق  
من الأرض المزروعة بين النهر من ناحية والصحراء وما يليها من جبال عالية  
من ناحية أخرى ، وحالما وصلنا قررنا أن ننتهز الليل الذى يغمره ضوء  
القمر لصيد الحيوانات المفترسة فتفرقنا فى مختلف الاتجاهات لاختيار  
مراكز اقامتنا •

فسرت ومعى بوسنجر Pausinger ومعنا الفلاحون عبر الحقول  
وتجاوزنا قرية يائسة حتى وصلنا للصحراء • ورأينا بقايا مدينة نخب  
Nechebt المصرية القديمة ( يسميها اليونانيون ايليثيا Eilethya ) ،  
وان كان المنظر ضبابيا غير واضح • ويشمخ مبنى متين خارج السور من  
طوب لبن فوق كل شئ ويشير بوضوح الى أنه بقايا قلعة ذات شأن •  
ويوجد هنا أيضا على افريز الجبل ( الافريز هنا هو ما نتا من الجبل )  
بعض القبور الحجرية • وقبر حجرى أسسه بطليموس يورجيتس  
Ptolemy Euergets وعلى اليد يوجد حرم ( معبد ) أمنحتب الثالث  
وهو مخصص للالهة نخبت Nechebt .

والصحراء فى هذا الجزء مشبعة بكاربونات الصوديوم ، وفى كل  
خطوة يسمع المرء صوت طقطقات القشرة الأرضية • لقد ذهبنا بالقرب من  
سفح الجبل واختبأنا بين صخرتين كبيرتين ، وربطنا عنزا صغيرا راح  
يشقو أمامنا على بعد خطوات قليلة • وما كادت تنقضى ربع ساعة حتى ظهر  
بدوى ملتف بعباءة بيضاء راكبا جملا ويغنى أغاني حزينة ، وبدأ هذا  
الراكب الغريب مثيرا للدهشة فى هذه الصحراء الخالية • وظهر أن الماعز  
الذى يشقو قد لفت نظر البدوى ، فتوقف وتطلع حوله وراح يجرى حوارا  
مع نفسه بصوت يكاد يكون مسموعا ، ثم استمر فى طريقه دون أن  
يكشف مكننا •

ولما عم الهدوء مرة أخرى سمعت خفيف حيوان يزحف ، وأصدر الماعز ما يشبه الأنين وقفز عاليا خوفا وفزعاً ، وعقب ذلك مباشرة رأيت جسداً أسود أكبر من الكلب يقترب من الشراك (العنز) ، فصوبت بإحكام وأطلقت النار ، وأسرعت إلى حيث الطريدة ولكنني لم أجد شيئاً خلا آثار زحفها إلى الجبل ، فاعترائني غيظ وخيبة أمل من جراء ذلك لكنني حسبت أنني أضيت ضيعة فعدنا إلى سفينتنا البخارية ، وطلبت من مساعد الصيد التابع لي أن يعود فجر اليوم التالي ليتتبع آثار الحيوان الجريح .

ولما عدنا للباخرة كان سائر أفراد المجموعة قد سبقونا بالعودة . وكان المدوق الكبير قد رأى حيوانات ابن آوى لكنه لم يصيب - لسوء الحظ - أيها منها أما هويوز Hoyos فقد حالفه الحظ فأصاب أحدها .

وفي العاشر من الشهر ارتفعت الشمس في كبد السماء قبل أن أستيقظ وأبحرت بنا السفينة هابطة في النهر لأكثر من ساعة ، وسألت عن مساعد الصيد التابع لي فعلمت أنه وجد الحيوان الجريح على بعد مئات قليلة من الخطوات من موضع إصابته ، لكن - وبالأسف - أنه لم يكن ضيعة وإنما كان أحد كلاب القرية ، والكلاب في مصر تكاد تكون متوحشة ، فالكلاب في مصر تتجول طوال الليل حول المدن باحثة عن فرائس ، كما رأى مساعد الصيد التابع لي وشقا lynx ضخماً حجمه ، على بعد خطوات قليلة منه سرعان ما اختبأ في ثقب في جدار الكاب El-Kâb العتيق .

### كلاب مصر :

وليسمح لي القارئ أن أذكر في كلمات قليلة فكرة عن الكلاب في مصر . لقد أجريت ملاحظات استطلاعية خلصت منها إلى أن كلب القرية the village dog والولف الأفريقي African Wolf (Cains lupaster) وأبو الحسين Abu el-Hossein أو (الديب) كما يسميه العرب وابن آوى Canis-aureus والكلب المصري والواوي Wauui البورى - كلها قد اختلطت معا فنتجت عنها سلالة مختلطة (\*) .

فلم يحدث أن أصيبتنا اثنين من حيوانات ابن آوى ولا اثنين من الذئاب (الولف) إلا ووجدنا بينهما تشابهاً تاماً ، سواء في الحجم أو اللون .

(\*) عن مدى صحة ذلك لا بد من الرجوع لعلماء الحيوان ، فما يذكره - غير متخيخ - فيما يبدو - ( المترجم ) .

وفي فلسطين نجد أن هذا الاختلاف أكثر وضوحا . وبشكل عام فإن حيوان ابن آوى الآسيوى أضخم من حيوان ابن آوى فى شمال إفريقيا ، إلا أنهما متشابهان ، وقد اقتنصت أحده هذه الحيوانات لا يمكن مقارنته بالنماذج السابقة سواء فى الحجم أو اللون بل ولا يمكن وصف هذا المخلوق غير العادى بأنه ذئب .

وعلى أية حال ، فإن كلاب الشرق تحمل غالبا دلائل تشير لأصلها المتوحش وهذا لا يثير الدهشة عندما يتذكر الإنسان أنها حيوانات غير مروضة لا صاحب لها . وتظل تجوس طوال الليل من الفسق الى طلوع الفجر مع الذئاب وحيوانات ابن آوى ، فى المناطق المحيطة بالمدين والقرى .

بل اننى أود أن أذهب لأبعد من هذا وهو أنه فى هذه الانحاء من إفريقيا وآسيا حيث الكلاب والذئاب وحيوانات ابن آوى تقطن منطقة محدودة وإن ابن آوى الخالص ( غير المخلط ) لا وجود له فى الواقع (\*) أما الكلاب والذئاب فأجناس حافظت على نوعها بطريقة أفضل أما ابن آوى *Canis aureus* كما ورد فى الكتب العلمية فقد بحثت عنه عبثا فأم أجله كجنس أو سلالة محددة .

دعنا الآن نعد لفامرات رحلتنا . لقد تابعت السفينة مسيرها حتى الساعة العاشرة صباحا حتى توقفت فى الدبابية Dabbabieh عند شاطئ رملى ، ورأيت على مكان مرتفع نسرا ضخما ، وعندما رسونا وجدنا الفلاحين الذين كانوا ينفذون أوامرنا حرقا .

وأقاموا كوخا صغيرا من البوص ، وقد أظهرت عظام الخراف والكلاب أن النسور قد تناولت وجبتها اليومية ، وقد وجدنا صعوبة كبيرة فى إبعاد الفلاحين المحيين للاستطلاع عنا ، فقد كانوا راغبين فى موافقتنا لأنهم كانوا فقورين بما أنجزوه فى سبيل مساعدتنا .

وسرعان ما ظهرت بعض نسور الجيف وتبعتها ثلاثة نسور ، لون رموسها مختلف عن لون سائر أجسامها hooded vultures ، وهذا النوع الإفريقى من النسور متوسط الحجم أسود ورأسه صلعاء . لم يحدث أن رأيت أبدا الطائر البشع منظره قبل ذلك ، فامتزعت - لذلك - بإطلاق النار ليكون لدى واحد من هذه الطيور . وأسرع الفلاحون قادمين من كل ناحية بمجرد سماع طلقتى وراحوا ينظرون لصيدى باستغراب وراحوا يهزؤون جلبة وضخبا بطلب البقشيش

(\*) لا ادرى مدى صحة ذلك ، والامر متروك للمختصين - ( المترجم ) .

لقد كان النسر الكبير يحوم دائريا فوق رموسنا ، وكانت اللحظة مناسبة لتابعته وكان يمكننا أن نحقق نجاحا كبيرا ، ومع هذا فقد كنا مضطرين للتراجع بقدر ما نستطيع لنحصى أنفسنا من الناس فقد وصل عدد آخر من الفلاحين من كل اتجاه ، فاستدعينا سفينتنا البخارية الى الشاطئ وواصلنا رحلتنا .

#### أرمنت :

وفي أرمنت Erment التي وصلناها بعد الظهر كان علينا أن نبقى لبعض الوقت لنحمل معنا قطعة الجرائيت الشهيرة ، وخلال هذه الفترة اليسيرة نجحت في اصطلياد ست وأربعين حمامة من حمامات الحقول كانت تعبر النهر من جانب الى آخر مارة فوق سفينتنا .

وسرعان ما تابعتنا رحلتنا فوصلنا الأقصر مرة أخرى عند الغروب ، وبسجود أن لست سفينتنا مرساها أسفل الفندق حتى ظهر خليل ومعه بعض الحمير ، فركب بعض أفراد جماعتنا بأقصى سرعة واتخذنا سبيلنا الى طريق الكركك الشهير لنكمن للضباع في عدة مكامن .

واتخذت لنفسى موقعا بجانب احسدى البرك pond (٢) القديمة أستمتع بجمال الماء ، ورحلت أشد ريش البجاجة الحية التي كنت قد أحضرتها معى - بين الحين والآخر - عسى أن يجنب صياحها الحيوانات المتوحشة . ولسوء الحظ ، قبلها من أن تجنب حيوانات ابن آوى ، ظهر بعض الرجال الانجليز فنظروا الى بدھشة ، وسرعان ما واصلوا طريقهم مبتعدين .

ولما عم الظلام ، انقض طائر ضخم على البركة Pond كالشبح ، فاطلقت عليه النار فوجدته طائر مالك الحزين ( البلشون ) وقد تمدد ميتا على الشاطئ . وبعد ذلك غادرت مكاني وركبت عائدا الى الأقصر فوجدت أن رفاق الرحلة قد عادوا دون أن يصيدوا شيئا .

#### مقابر السلوك :

وفي بكوند صباح اليوم التالى جئنا الى الشاطئ الغربى ( تعليق المترجم : يسمى الارشيدوقه الشاطيء الغربى للنيل باسم الشاطيء الليبى Libyan shore ) ، لزيارة مقابر الملوك . ركبتنا البغال ، وفى بداية الطريق عبرنا سهلا خصبا ، وكان الفلاحون يعملون فى حقولهم بهمة بينما كانت نسور الجيف تتحلق بكثرة حول الاكواخ الطينية المتناثرة ، بينما ترعى الجمال والماعز - ذوات الأذان الطويلة - والجواميس والحمير

والأغنام كلا اعترته صفرة • وكان الطريق يمر بنا بين بعض البرك ظل الماء باقيا فيها منذ أيام الفيضان وعبرنا ترعة ضحلة بها رمال الى قرية صغيرة فقيرة ، تشكل نخيلها وأشجارها الحد الفاصل بين الأراضي المزروعة والصحراء ، وسرعان ما وصلنا لسفح الجبال الشامخة لينتهي الوادى عند منحدرات جبلية حادة ، وأصبحت المنحدرات الصخرية أمامنا مباشرة . ويؤدى مرور خاص الى الأسفل الى مقابر الملوك ، وقد اختار رفاق الرحلة أن يسلكوا هذا الطريق •

فكان من رأى أنا والدوق الكبير أن نصل الى مقابر الملوك بأن نسلك طريقا قصيرا عبر الجبل ، وبالفعل فقد استعنا بدرشه عربى معروف بأنه رياضى ممتاز وتسسلقنا بعض التلال الرملية التى اختلطت بها أحجار مكسرة ، ثم هبطنا من الناحية الأخرى •

وكان المر الضيق يلف مرتفعا على طول المنحدرات الصخرية بين كتل وجلاميد صخرية ، وإلى اليمين واليسار كنا نرى ما لا يحصى من القبور والكهوف الجنائزية *funerat caves* فالمنحدرات الدنيا لكل خط الجبال الى الغرب من طيبة القديمة بها تجويفات عميقة فتجويفات أعمق فأعمق وهكذا ، واتخذت هذه التجويفات مقابر على مدى القرون •

وقد خرج ذئب من بين هذه القبور وانسل صاعدا المنحدرات ولسوء الحظ فإن المسافة كانت بعيدة لا تمكننى من اطلاق النار عليه بطلقة صغيرة ، اتنا الآن فى طريقنا لتسلق الجبل صاعدين ممرات مختلفة أملين أن نتمكن من اطلاق النار عليه •

وسرعان ما وصلنا للقمة فتجلى أمامنا منظر جميل فى وادى النيل الأخضر متمثلا فى مدينة الأقصر وآثار الكرنك ، وفى الناحية المقابلة الجبال العربية *Arabian mountains* : قمم وذرى ومسيلات ووديان ومنحدرات صخرية وأكوام من رمال وأحجار مهشمة وكتل حجرية صلبة وكتل من أحجار جيرية ، جميعها بيضاء أو اعترتها الصفرة دون أثر أخضرة ، وإنما جرداء تتلألا وقد عكست أشعة الشمس الأفريقية • قلما يتخيل المرء صورة أكثر عظمة وجهامة من جبل صحراوى حقيقى • وفى الرمال وجدت آثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى وما لا يحصى من جحور الحيوانات البرية ، وكمننت النسور فى ظلال الصخور وحلقت العظائم *Swift* فوق قمم الجبل القصية •

وجرى ذئب عبر المر أمامى لكنه كان بعيدا لا تؤثر فيه طلقتى ، وضاعت فرصة مماثلة — لاقتناص ابن آوى — من الدوق الكبير للنسب نفسه ، وسرنا فى ضيق وهبطنا بصعوبة فى الوادى الرئيسى لتقابل الحمير

فى الموضع المتفق عليه سلفا • وركبنا الحمير عبر واد منعزل تحيطه جبال  
بيضاء عابسة ، لنصل الى مقابر الملوك عند بيبان الملوك Biban-el-Moluk  
حيث يواجه ممر مسلود من منتهاه Cul de sac ومنحدر على نسق  
انحدار الوادى الذى يشقه ( اى الطريق ) وينتهى بنهايته وثمة شقة  
( هوة ) مظلم يفضى الى مدافن الاسرات ( الفرعونية ) الاولى ، وحملتنا  
المشاعل ودخلنا اضرحة الماضى •

وانى مدين لبرجش Brugsch باشا لكثير من الملاحظات القيمة  
عن هذه البقعة ، وسأتركه الآن يفضى بنا عنده : « مقابر بيبان الملوك تقح  
فى واد جانبي فى الجبل توحى طبيعته نفسها بسكون الموت ، وهنا تم  
دفن الاجيال المتعاقبة من اكثر ملوك الاسرات الحاكمة فى طيبة شهرة •  
وذلك فى كهوف عميقة ، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة فصاعدا • ونجد  
قبر مسيتى الاول Seti I الذى يمثل معبدا ( ضريحا temple »  
حقيقيا لميت قد نحت خارج الصخرة ، ويعد هو الاجمل بين هذه الآثار  
الجديرة بالملاحظة • وتفضى الدرجات ( السلالم ) التى تهبط بشكل  
ملحوظ الى مجازات يمر بها حاملو الجثث ، فى ظلمة شديدة ، من ممر  
الى ممر ، ومن حجرة الى حجرة ، ورغم غارات النهب على هذه المقابر  
الا أن الرسوم والكتابة لاتزال تحتفظ ببهاء ألوانها كاملا • لقد تابعت  
رؤية مناظر متتابعة مستعنين بالضوء الباهت فحملتنا هذه المناظر الى عالم  
الموتى وجعات مناطق العالم السفلى المختلفة أمام نواظرنا مصورة نعيم  
الفردوس وعذاب من يستحقون اللعنة ، والسموات ذوات النجوم ورحلة  
مراكب الشمس السرية من الغرب الى الشرق ومن الموت الى الحياة خلال  
الليل والظلمة • لقد تجلى كل ذلك أمامنا فى صور • وتجلى بتفصيل  
كامل ، ونشرت أمامنا صفحات غامضة للحياة بعد الموت ومفتاح عقائد  
المصريين القدماء المتشابهة هو فكرة بعث الروح بعد موت الجسد  
الى مصدر النور ، فيحظى الطيب بالنور والسعادة ويجازى الشرير بالظلمة  
والآلم •

وفى غرفة — تم اغلاقها باحكام قبل ذلك — فى ضريح مسيتى الاول  
Seti I ( حوالى ١٣٥٠ ق م ) رأينا ما يشبه بقرة السماء  
Cow of heaven ، ووجدناها شريط من كتابات هيروغليفية طويلة ذات  
أهمية فائقة ، إذ تتناول ابادة الجنس البشرى واعادة تشكيل نظام  
عالمى جديد ، مما يقدم لنا مفتاحا للفهم الصحيح للعقيدة المصرية القديمة •  
وفيما يلى ترجمة لهذا النص الغامض :



« كان لمصر العليا والدنيا ملك هو اله النور رع Ra لم يولد ( هو موجود بذاته ) ، وبينما هو يحكم اتحاد الملوك البشر والآلهة في كيان واحد (\*) وبدأ البشر في حبك المؤامرات عنده اله النور رع ليتخلصوا منه ، ولأن عظمته الملكية قد غمت عتيقة عريقة فإن عظامه كانت من قضية ولحمه من ذهب وشعره من ياقوت نقي ورأى بعظمته الملكية كيف يكرر به البشر ، فدعا اليه خدمه قائلا : « احضروا لى عيني ورب السحاب شو Shu ورب المطر تافنوت Tafnut ورب الأرض كب Keb ورب السماء نت Nut واحضروا الأب والام اللذين اتحدا معى وقت أن كنت ونفسى في المياه الأولى ( المياه التى هي الأصل والأساس ) ، وكذلك رب المياه الأولى نن Nun الذى يحمل الوهيتى (ربوبيتى) فى نفسه ، دعوه يحضر حاشيته معى . وقولوا له : « احضرهم هنا بلا توان أو تأخير . لا تنتظر للرجال ( البشر ) ولا تدر أرواحهم بعيدا . تعال الى قصر هليوبولس مع الأرباب الذين وافقوا على خروجى من الماء الى المكان الذى اشغله الآن » وبالفعل تم احضار الأرباب فالتقوا بأنفسهم على الأرض اظهرا لولائهم لعظمته حتى يلقي كلماته لوالد أكبر الأرباب الذى خلق البشر وأنجب النبلاء . وقال الأرباب لعظمته : « تحدث إلينا حتى نفهم » .

« فتحدث اله النور رع Ra لرب الماء الأول نن Nun قائلا : « أنت الأكبر بين الأرباب ، منك خرجت ، وانت أصل الألوهية ، فلتسمعنى الآن : الرجال الذين خلقوا من عيني يتحدثون ضدى ! قل لى : ماذا أنت فاعل ؟ حقيقة انى سأنتظر ولن أحطمهم حتى اسمع رأيك فى هذا الموضوع » .

فتحدث نن Nun وقال : « يا بنى . أنت رع اله النور أنت اله أعلى درجة منه فهو أبوك وانت أعظم منه ، أعظم من الذى أنجبك Who begat thee فإين أقيم ( أجعل ) البشر الذين يقولون هذه الكلمات عنك ، ذلك أن فرع أولئك الذين يحيكون المؤامرات ضدك سيكون عظيما كبيرا ، سيكونون الى جوارك لأنك ستطبق عليهم جفونك ( عيونك ) » .

وقال عظمة رع اله النور : اذهب اليهم ، فقد هربوا للجبل لأن أرواحهم كانت مليئة بالرهبة من قريى » .

وتحدث الأرباب الآخرون لعظمته : « أرسل عينك . دعهم تضرب عنك أولئك الذين حاكوا المؤامرات باعتبارهم أتوا أمرا شريرا » .

(\*) أصبح اللاهوت والناسوت في كيان واحد . وهى الافكار لنفسها التى تسربت بعد ذلك لبعض بيانات التوحيد - ( المترجم )

فأرسل إله النور رع عينه his eye فهبطت متقمصة (متجسدة)  
شكل الربة هاتور Hathor ، وعادت بعد أن حطمت البشر (الذين  
تحدثوا ضد رع) على الجبل .

وتحدثت عظمة الإله (الرب) فقال : « أبشر . لقد تم تنفيذ ما كان  
يجب تنفيذه . » لقد أوردنا البشر موارد التهلكة . »

وتحدثت هذه الربة (الإلهة) فقالت : « اننى أقسم بك اننى نفذت  
حكمك فى هؤلاء البشر ، وهذا يسعد روجي . »

وقال إله النور رع : « سوف أنفذ حكمي (قضائي) على البشر من  
خلالك فى المستقبل . »

وهذا هو أصل اسم الربة الانتقام . الربة سخط Sokhet (٣) .

وهكذا تحدثت Nut ربة السماء أمام أبيها نون Nun رب الماء  
الأول . وعندئذ تحولت ربة السماء Nut الى بقرة ضخمة وحملت على  
ظهرها عظمة إله النور رع .

« وبعد أن علم البشر الذين ذهبوا صاعدين فى المجرى ما حدث  
وقفوا ونظروا اليه (رع) وهو جالس على ظهر البقرة . »

وتحدث البشر وقالوا له (رع) : « أنت إله النور رع لا تتخل عنا ،  
سنقتل أعدائك الذين يحيكون المؤامرات ضدك . » سيقتلون . »

وذهب عظمته الى قصره لكن الذين تبعوه بقوا مع البشر (الرجال)  
حتى غرقت الأرض فى الظلمة ، الا أنه عندما أُنارت الأرض وأشرق الصباح  
هرب البشر (الرجال) مسلحين بالاقواس والرماح وأطلقوها على أعداء  
الإله (وهذا هو أصل فكرة الأضحية) وتحدث هذا الإله الى الإلهة Nut  
السماوية : « لقد حملت نفسى على ظهرك فأوفعيني الى أعلى »  
وفهمت ربة السماوات المعنى فتمطت . وهذا أصل العبارة القائلة : اطح  
نفسك فوق ظهرها تمدد (تمطى) ذاتها .

وقال عظمة هذا الإله : « والآن وقد فارقتم البشر ، ساصعد الى  
أعلى وأراقب . »

وراح عظمة الإله يراقب (الأمور) من الخارج ، وقال : ابحثوا لى عن  
حمالين أشداء : « مجموعة من البشر » وهذا هو أصل عبارة « مجموعة  
رجال (mass of men) . »

وقال جل جلاله hir royal majesty : « يا له من عمل مقم  
بالسلام أن أقيم حقلا واسعا ! » وهذا أصل اسم ( حقل السلام ) . سوف  
أنزع (؟) الأعشاب فيه ، وهذا أصل اسم (pluckfield) وسأمد  
السكان بكل شيء . . . .

وتوقفت السفينة هناك ، وفوقها مجاديف ومعيد صغير ، وفوقها  
قرص الشمس ، ووقف اله النور رع فيها أمام رب السحاب شو shu ،  
وبجانب يده ( قراءة أخرى : خلفه الى جوار يده ) .

وتم وضع ضرع البقرة الى جوار فخلها الأيسر ، وفي الوسط .  
فالكتابات الموجودة عند منتصف ساق البقرة الخلفية كالتالى : « السماوات  
الخارجية » و « أنا حيث آكون I am where I am » و « أنا لا أدعها تعود  
I do not let her turn back » ، والكتابات الى أسفل السفينة فى المقدمة :  
« لا تسترح يا ولدى » والكتابات فى الاتجاه العاكس ( المقابل ) :  
« حملك كالحياة Thy bearing is life like » و « ابنك هناك  
Thy son is yonder » و « الحياة والسعادة والصحة ، كل ذلك ممنوح  
لمنخريك » والكتابات خلف شو رب السحاب بالقرب من ذراعيه هى :  
« حارسها Her guardian » والكتابات خلفه عند قدميه فى الاتجاه  
المقابل : « الحقيقة » وكتابة أخرى : « هم يدخلون هنا » وأخرى :  
« اتنى الحامى كل يوم » .

والكتابات تحت ذراع الشكل ( الرسم ) الكائن بين الساق اليسرى  
وخلفها كالتالى : « منهى كل شيء » .

والكتابات فوق الرسم عند الربيع الخلفى من البقرة بالقرب من  
المساقين هى : « حارس خروجها Guardian of her going out » .

والكتابات خلف الشكلين التى تمتد من ساق البقرة الى رأس  
الشكلين هى : « الرجل كبير السن الذى يسبح عند خروجه » و « الرجل  
كبير السن الذى يتعبه عند قدومه » .

والكتابات فوق رأس الشكلين والكائنة بين المساقين الإماميتين  
للبقرة « المستمع » « المصغى » و « ثقلة سلطان السماوات العلا » .

« وقال عظمة هذا الإله للرب توت Thot ( رب الفهم ) :  
« استندغ لى عظمه كب Keb رب الأرض بهذه الكلمات : « تعال  
بسرعة » . . .

وجاء عظمة كب Keb رب الأرض وقال عظمة اله النور رع : فلتقم معركة بسبب ديدانك ( البشر ) الذين يسببون لك الازعاج ، فمن أجل سعادتهم يجب أن يخشوني طالما أنا موجود as long as I exist لذلك سأترك لك مهمة معرفة صدقهم وطهارتهم • كن مستعدا واذهب حيث أبونا الذي هو رب الماء الأول - نون Go where my father the God of the primordial water, Nun

وقل له :

احفظ الديدان ( المقصود البشر أو الكائنات الحية ) على الأرض وفي الماء واكتب في التو واللحظة لكل مكان ( منطقة ) يقطن فيها ديدانك وقل : « ان حافظكم ( ربكم ) هو الذي يحيط بكل شيء » • اذا كانوا سيعرفون أنني ذهبت بعيدا ، فمن أجل سعادتهم أن أرتفع فوقهم كضوء الشمس • الشفاء ضروري • انه الآب ( الأب ) الذي هم في حاجة اليه • كن أنني الآب على هذه الأرض » •

وهم أيضا سيكونون محبين ( محروسين ) بسبب أفكارهم الحكيمة وسوف يكون في حكم أفواههم خلاصهم their Salvation ذلك لأن حكمتي قضت بالخلاص • وسيكون الشكور آمنا ، والا لن أقدم لأحد حمايتي بسبب العظمة ( الجلالة ) الذي أعطى له ألامي ( قبلي ) • سوف أوحدهم مع ابنك أوزوريس وسوف أحفظ أطفالهم ، وستتجلى فضائلهم في أنهم يعملون وفقا لما يقتضيه حبهم للعالم كله وفقا للأفكار الحكيمة المبثوثة فيهم •

وقال عظمة الاله : استدع لي الرب توت - رب الفهم ، فلما حضر قال عظمة الاله له : « انتبه ! عظمة هي المسافة من السماء حيث أقيم عرشي وحيث يتحتم أن أقيم لأوزع أشعة الشمس ( بالعدل dispense ) أنت رب عظيم في الأعماق وفي عالم القبور حيث أنت الذي تكتب وتعاقب من يسكنون هناك ومن يقتربون الخطايا فأبعد عني أولئك الذين يتبعون الآثام who followed evil الذين يملأون قلبي بالخجل ( الحسرة ) - اجعل نفسك مكاني - ممثلي ، والا فلماذا سميت توت Thot ممثل الشمس ؟ انني سوف أمرك أن تستدعي الأمراء باسمك » • وهذا هو أصل ايبس Ibis رسول توت « سوف أدعك تمد يدك لوجه الأرباب القدماي ( الآلهة القدماء ) الذين هم أعظم منك • وسيكون حسنا إذا ما ظللت ( رويت ) ظمئي ، وهذا أصل طائر الماء التابع للرب توت • « وسأدعك تحتضن السماء والأرض بالعظمة كشعاع من نور » ومن هنا أتى اسم « مغلف enfolder » للقمر • « وسأدعك تجبر كل البرابرة على التقهر » ومن هنا أتى اسم « الطارد expeller » للقرود الذي

يحمل رأس كلب ، وهذا أصل المهمة المنوطة - كقائد للجيش -  
• لكنك أنت - على هذا - مثلى لكل الأشياء المرتبة التي يمكن التجلي  
من خلالها •• that through thee may be manifested وكل البشر  
سميت بحوتك كاله •

• وإذا ادعى أى شخص هذه المرتبة لنفسه ، اجعله يحك جسده  
أولا بالزيت والدهان ، ودعه يرفع المبخرة ( وعاء العطر ) بيديه الى خلف  
أذنيه •

• واجعله يغسل فيه بالصابون المقدس ، ودعه يرتدى ملابس  
نظيفة •

• واجعله ينظف نفسه بماء الفيضان ، واجعله يلبس فى قدميه  
صندلا ( نعالا ) بيضاء لامعة • وستنطبع صورة ربة الحقيقة خضراء على  
لسانه •

• وإذا كان يسره أن يقول ذلك ( الحكم ) للرب توت فاجعله يظهر  
نفسه تسع مرات كل يوم طوال ثلاثة أيام •

• وليفعل الشيء نفسه الكهنة والناس والآخرون ، وإذا كرر انسان  
ذلك ، فليراع التعليمات التالية :

• اجعله يقف فى دائرة تفصله عن الآخرين •

• اجعله يركز عينه عليها ويدير كل أطرافه نحوها • ولا يجعل قدميه  
قادرتين على التحرك للأمام • فإذا كان الانسان ( الرجل ) على هذا النحو  
فقل له انه لو كان كذلك لكان مثل اله النور رع فى يوم ولادته •  
لا تتناقص عناصر الخير فيه ، ولن يفقد بيته شيئا وانما يبقى فى الطريق  
السوى مليون مرة •

• وهكذا ينتهى الوصف البقيق للبقرة السماوية وما يحيط بها  
وما حولها من كتابات •

• ان سلالة ( الآلهة والأرباب ) التى يرد ذكرها فى عقائد هذا الدين  
الذى مضى عليه آلاف السنين جديرة بالاهتمام ، كما أن الوصف التفصيلي  
الرائع يميز هذه العقائد المتعلقة بأهل الجنوب خاصة الشرقيين • وأود  
أن أضيف هنا شجرة نسب للآلهة المصرية القديمة مستخلصة من هذه  
الآثار :

Nun (Chaos) ( شاونس ) نون

اله الماء الأول

Ra ( الشمس ) رع

اله التور • عنصر النار

Fasnut فاستوت

Shu ( هركيولس ) شو

ربة المطر

رب السحاب • عنصر الهواء

(Kronos) Keb • كب

(Rhea) Nut نوت

رب الأرض - عنصر التراب

ربة السماء

ايزيس

Set ست

Horus حورس

اوزوريس

نفتيس

( تيفون )

( أبولو )

عنصر الماء

Apollo

هروكراتس

Harpocrates

العالم في تجده النوري في شكله المرئي

\*\*\*

وبعد أن تفحصنا كل غرف أهم مقابر الملوك تناولنا افطارا متواضعا خارج المسخل ، وبعد راحة قصيرة صعدنا بشق الانفس من خلال ممر ضيق ، لنعبر الجبال الى مدينة حابو Habu فوصلنا مرة أخرى الى صحراء جرداء صخرية وأصبحنا الآن عرضة لشمس الظهيرة المحرقة . وكان علينا أن نتسلق بعض الصخور شديدة الانحدار لنعبرها فلم نصل لقمتها الا بعد جهد جهيد وبعد ذلك مباشرة وصلنا لمنطقة القبور الحجرية ، ومررنا خلال خرائب وبقايا ومنازل قديمة آيلة للسقوط ، كلها تعود لعصور اسلامية فوصلنا لأرض مزروعة فتركنا خيولنا في ظل جدار ، ولوصلنا طريق أطول من الطريق الذي قطعناه صباحا الى تمثال ممنون الضخم اللافت للنظر Collesus of Memnon الذي قاق كل توقعاتنا ، ثم وصلنا الى شاطئ النيل ، ومن ثم وصلنا لسفينتنا البخارية مستخدمين أحد القوارب في فترة بعد الظهر ، وتناولنا غداءنا . وتبعنا بعض العرب كمساعدى صيده لزيارة بقعة بالقرب من مدينة حابو Habu في المساء بحثا عن الطرائد . وركبت بعد الغداء - يتبعنى مساعدو الصيد وسلكنا مرة أخرى طريقا طويلا عبر أرض زراعية ومررنا بتمثال ممنون حتى وصلنا لقرية حابو التي لا تزيد عن كونها بضعة بيوت طينية . وثمة سهل صحراوي عريض على نحو ما يفصل بين الأرض الزراعية وسفح الجبل - يمتد مباشرة خلف القرية ( قرية حابو ) .

وكانت آثار أقدام الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى كثيرة ومتتابعة تربط بين الجبل والمساحة التي نمارس فيها رياضتنا فاختبأت خلف بعض الأحجار الضخام . كانت الشمس تقرب وكانت الرمال والصخور والجبال والآثار والتخيل وقرى السهل تفيض بأزهى الألوان وواصلت بومة فرعونية بنية - يعترى لونها البنى صفرة - كبيرة الحجم - طيراتها الصامت ، بحثا عن فريسة ، وسرعان ما أطلقت النار على ابن آوى تتبع آثار أقدام الحيوانات الآنف ذكرها ، وراح يتقدم قافزا للأمام وكأنما لا يحيق به خطر ، الا أن طلقتى طاشت فقد كان ابن آوى - لسوء الحظ - بعيدا ، وتشقلب الحيوان واضطرب واتخذ سبيله مسرعا عائدا للجبل مرة أخرى . وقد وجلت حقا خطا أحمر - وهذا حقيقى ، ولم يجد البحث السريع الذى لم يستغرق وقتا كافيا عن نتيجة فسرعان ما حل شفق الغروب وكان على أن أعود للمنطقة الملائمة لصيد الضباع .

وركبت قاطعا الصحراء يداى رجل غريبى ، وكانت الصحراء تمتد وتمتد داخل السهل حتى وصلنا الى تل رملى صغير . كان المشعل الذى نحمله من النوع الجيد وكان الحمار الميت قد وضع بشكل واضح فى الرمال البيضاء .

كان السكون العميق يسود المنطقة المحيطة بنا ، وتظهر في الظلمة غير الدامسة الخطوط التي تحدد أشكال الجبال وبدت الصحراء الصفراء شاسعة لا نهاية لها .

وسمعت أكثر من مرة صوت تسلل ابن آوى ورأيت ظللا سرعان ما مرت سريعا ، وميزت شكل ذئب ، لكن الضياع وهي ما نرغب في صيده كثيرا لم تأت . فأفضل الأوقات لصيده الضياع هي الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، لكن في ذلك الوقت يهاجمنى النوم فلا أستطيع مقاومته بعد الساعة الحادية عشرة ، فغادرت مكمتى ، وتركنى العربى اذهب لمسافة قريبة واقترح أن نبقى فى انتظار الضبع - بينما هو مسلح ببندقيته .

ان أمامى مسافة طويلة لكنها لطيفة بالنسبة لى قليل مصر المقمر يحفر فى الذاكرة كأروع المناظر الساحرة ، وقد حملت ذاكرتى هذا المنظر من أرض القراعنة السطية . وكانت تماثيل ممنون Memnon منتصبية كالاشباح ، زاد الليل من ضخامتها . وجرى ذئب بالقرب من النيل أمامى على بعد خطوات قليلة لكن ببندقيتى لم تكن معمرة لسوء الحظ . ولم أصل للباخرة الا متأخرا جدا وحان وقت راحتى التى كنت تواقا لها .

وفى بكرور اليوم الثانى عشر من الشهر ركبنا جميعا وسرنا فى الطريق نفسه لقرية حابى ، وأطلقت النار من فوق حمارى على طائر الشنقب Snipe وطائر زمار الرمل Sand pipers ، وكانت صفوف طويلة من اللقالق ( جمع لقلق Stork ) تقف على الشواطىء الرملية وفى البرك . وصلنا لقرية حابو بعد ساعة حيث كان الصياد العربى فى انتظارنا ليخبرنا انه فقد - بسعادة - الضبع ، حوالى الساعة الواحدة ليلا . ولم أصدقته وقررت أن أعاين المنطقة بنفسى وأن أركز اهتمامى أيضا على التنسور المتجمعة بأعداد كبيرة وفقا لما ذكره العربى .

ولسوء الحظ ، وجدت أن هذه الطيور الجارحة - بمجرد وصولى - كانت قد أنهت بالفعل وجبتها وجمدت - غير قادرة على الحركة - فى مكان غير قريب على بعد مئات قليلة من الخطوات فى الصحراء . لقد كان الحمار الميت قد مزق اربا ، وتم التهامه بالكامل تقريبا وما تبقى منه كان مغطى بريش التنسور وأقذارها .

وأخطأت كما أخطأ العربى ، فسرعان ما وجدت أثر الضبع يؤدى من جانب واحد للجيفة ، ويؤدى من الجانب الآخر للصحراء . وفى طريق العودة لقرية حابو لاحظت آثارا حديثة تماما لقدعى غزال .



وبمجرد أن وصلت لمستراح رفاقي في الرحلة حتى بدأنا زيارتنا لمعبد الرامسيوم Ramsesum المدهش الجميل ، وهو معبد جنائزي temple of the dead لازال يحتفظ ببهائه ، ويقع بالقرب من قرية جابو .

وانى مدين لصديقي برجش Brugsch ببعض الملاحظات عن هذا الجزء من طيبة أوردها هنا بكلماته هو : « الجزء الغربى من طيبة لا يقل ثراء في الجبال عن الجزء الشرقى للمدينة ، وكان يعتبر مئوى للموتى — مدينة الموتى necropolis . ففي سهل من الأحجار الجيرية وكذلك في المنحدرات ذات التجويفات والثقوب في الجبال المجاورة — وجد ملايين من أهل طيبة ذوى الشأن مثواهم الأخير . ففي السهل عند سفوح المنحدرات الصخرية تشمخ — فى كل اتجاه — المعابد الجنائزية Sepulchral temples وأبوابها دائما مفتوحة ناحية الشرق مما يعطى مدينة الموتى طبيعة أكثر المناطق قداسة . ومعبد الجرنة Gurna الذى لا يزال موجودا عند الطرف الشمال للسلسلة الطويلة من المعابد ، والذى أنشأه رمسيس الثانى احياء لذكرى جده غير المشهور الذى يحمل الاسم نفسه ، ومعبد الجنائزى المسمى رمسيوم ، يعد مثالا فى تصميمه وزخرفته ، على نسق معبد سيتى الأول الجنائزى فى أبيدوس ( سيتى الأول والد رمسيس الثانى ) وقد سبق أن وصفنا هذا المعبد .

والرامسيوم فى طيبة يعد بالإضافة — لكونه معبدا جنائزيا — هيكلا لاهيا. ذكرى انتصار الملك على الحيثيين Hothites وتخليدا للأعمال الجيدة التى حققها . وتمثاله العملاق من الجرانيت الأحمر مطروح على أرض المعبد القديم بالقرب من بوابة الجناح الجنوبى .

وأبعد الى الجنوب يوجد تمثالا ممنون الشهيران — حارسا مدينة الموتى ، وقد شمخا منعزلين تحت سماء طيبة الزرقاء الصافية كشاهدين صامتين على تاريخ المصريين العظيم الطويل . لقد زين المصريون — فى وقت من الأوقات — المساحة الواقعة أمام البوابة العظيمة للمعبد الجنائزى للفرعون أمنحتب الثالث ، وقد اختفى هذا المعبد الآن دون أن يترك أثرا فى الغالب على سطح الأرض . وهذه الآثار من عمل أحد موظفى البيت الملكى وهو حى Hi بن جابو .

ولا زال يوجد الى الجنوب المعابد الجنائزية للفراعين : تحنيس الثالث ورمسيس الثالث تقع وسط مكان مرتفع يشبه تلا . ورمسيس الثالث هو الملك رامبسينيتوس Rampsinitus فى التراث الاغريقى ، وحقق معبده شهرة لكثرة ما به من رسوم وكتابات لتخليد ذكرى انتصاراته ضد

الحلف الليبى الأيونى وإذا تتبعنا المعبد الصخرى الذى أنشأه تحتمس فى الركن الشمالى الغربى لمدينة الموتى العظيمة فى طيبة نكون قد آتينا على كل معابد الملوك الجنائزية التى كان هدفها هو أن تبقى شاهدا للأجيال المتعاقبة حتى لا يضيع الماضى .

ولما انتهينا من زيارة مدينة الأموات الشهيرة تلك ركبنا وعبرنا السهل عائدين الى سفينتنا البخارية . لقد كان علينا الآن أن نغادر الأقصر الجميلة وآثار طيبة العظيمة ذات المائة بوابة . وكان سهل طيبة يرقده متدثرا بسديم حرارة الظهيرة الحارقة تحده الجبال الشامخة . لقد كان منظرا مدهشا ، كان خير وداع لنا .

### قنا :

وقضينا فترة بعد الظهر فى رحلتنا فى قضاء ساعات مبهجة فوق ظهر السفينة ننعيم بالنسائم الباردة التى يزفها النهر إلينا ، وبالمناظر المحببة يتلو بعضها بعضا أمام نواظرننا . وفى الساعة السادسة مساء رسونا فى قنا ، وفى هذه المرة لم يكن رسونا على الشاطئ الغربى حيث دندرة Dendera وإنما رسونا على الشاطئ الشرقى بالقرب من المدينة الجديدة .

وقضينا فترة المساء فى الصيد بالمناطق المجاورة للمدينة ، فقد ركبت أنا وهويوز Hoyos عبر سهل غنى وعريض - فى هذا المكان ثم تتبعنا إحدى الترع ، فاصطدنا طيوراً مختلفة وعبرنا ونحن راكبون مجرى مائيا فى موضع ضحل وعدنا فى اتجاه المدينة فوجدنا بجوارها نخداتى باسمه وغابات نخيل تشمخ بذراها . وكانت الحدوات والصقور واليازات ذوات الأجنحة السوداء والغربان السود وأنواع أخرى من الغربان Crows واليوم الصياع Screech-owl وكل أنواع الطيور الصغيرة - تبحث لها عن ملجأ فى هذه الغابة . أما وقد علمنا ذلك فقد اختبأنا خلف أشجار النخيل وفزنا بصيد وثير .

ولما ظهر الشفق الأحمر بعد غروب جميل ركبنا عائدين بموازة سور حتى دخلنا المدينة الكبيرة نسبيا .

وكانت الطرق الضيقة على جانبيها منازل طينية ، بالاضافة الى زيناتها المعمارية ومآذنها السامقة - كل ذلك ينبىء عن أهمية المكان الذى ينص بالحياة . وقادتنا الصدفة السعيدة خلال الشوارع المزدهجة الى سوق عامرة مغطاة بالحصر ومضاءة بشكل جيد ، وتجارها المشغولون

يتحلقون حولنا بطمع محدثين جلبة وضوضاء . وقد هربنا من الأتربة والأبخرة والروائح النتنة التي تنتشر - خاصة في المساء - شرقي المدن - متتبعين المرائب Stalls التي كانت تكون خطا طويلا ، وأسرعنا عائدين الى باخرتنا ، وقد عاد رفاقي الآخرون ببعض الصيد ، لقد كان حصاد صيدنا في قنا وفيرا .

وتابعنا رحلتنا في اليوم الثالث عشر من الشهر في جو جميل ولم نتوقف من مشرق الشمس حتى منتصف النهار فوصلنا حيث جبل طوق Tuk يقترب اقترابا شديدا من مجرى النهر ومسعدنا برؤية المنطقة واقترحنا أن تريض بعض الشيء بعد أن نرسو على الشاطئ المهشم ، ولم يكن ثمة قرية ولا منزل قريب ، فلم يكن الا الشقوق والصدوع في الجبل الصخري التي يفصلها عن مجرى النهر مرج أخضر لا يتعدى عرضه مائة خطوة في أقصى اتساع له . ولما زحفنا بين أكوام الصخور وعلى المنحدرات الجرداء وجدت كثيرا من آثار حيوانات ابن آوى وبعض الجحور ، ومن ثم فقد أتيت بكلايى من نوع الدشهند وتركها تبحث في الأخاديد والشقوق العميقة ، ولسوء الحظ فإن هذا كان بغير نتيجة .

وفشلت جهودي كذلك في الزحف الى الطيور الجارحة المستقرة فوق قمم التلال والصخور ، وأثناء هذه المحاولات المنحوسة وجدت بعض القبور القديمة المجوفة ، ووجدت فيها بالإضافة للعظام بقايا مومياء محتطة - ربما كانت مجرد لحم وعضلات حمصتها حرارة المناخ الجاف ، وأثناء عودتي من الجبل أطلقت بنلقيتي على بعض طيور السماني التي لجأت الى المرج الضيق مرهقة بسبب رحلتها الطويلة .

### سوهاج :

وبعد توقف لم يدم أكثر من ساعتين واصلنا رحلتنا ، وعند اقتراب الساعة الثانية وصلت باخرتنا الى مدينة سوهاج وهي مدينة كبيرة ذات موقع جيد ، فرست ليتاح لنا فرصة كشف المناطق القريبة منها .

وذهبت أنا والدوق الكبير فدرنا حول أبعد أحياء المدينة بالقرب من ثكنات عسكرية لحامية صغيرة وبخشنا عن بعض البرك الكبيرة لاصطياد أنواع الطيور المختلفة . واضطررنا للابتعاد لتزاحم المتطفلين والقادمين معهم جواميسهم وجمالهم لتشرب ، وسرنا متتبعين الطريق الموازي لبحر يوسف الشهير Famous Canal of Joseph فمررنا بمنازل متناثرة وحقول يانعة وبساتين ووصلنا الى غابة من أشجار الجميز والطرفاء والنخيل . لقد كان هذا المكان غطاء ممتازا تأوى اليه أعداد كبيرة من

الطيور ، وبعد غروب الشمس مباشرة أطلقنا بنادقنا على الطيور التي كانت قد شرعت فى النوم ففوجئت ، فوق فى أيدينا فى غضون دقائق قليلة نسر صغير ، وحيوانات كثيرة ، وصقور وبومتان وكثير من الحمام واليمام . ومن ناحية المنظر ، فإن هذه الغابة تشتمل - فقط - على الأشجار الأفريقية مما أعطاها شكلا جذابا ، وقد غادرناها - غير راغبين فى مغادرتها - تاركين روائحها العطرة ، وثرأها وظل خضرتها ، انها تذكر المرء بحكايات الليالى العربية . وتتبعنا الطريق ذاته فوصلنا - سريعا - للمدينة فركبنا وعبرنا طرقا ضيقة ومزدحمة .

### الى أسيوط :

وتفضل المدير على باشا فأغارنى حمارة الضخم الأبيض كالثلج ، واسمه - أى الحمار - أبو جبل ، وهو حمار عربى من سلالة عربية نقية وغمرنى السرور وأنا أركبه فقد كانت خطواته ممتازة ، فلما رأى على باشا مبلغ سرورى به أهدانى اياه . وكان يجب علينا الآن أن نجد مستقرا للحمار على ظهر السفينة ، فأنشأنا له مربطا وسرعان ما دخل منزلنا المتحرك ( يقصد السفينة البخارية ) ، وشرعنا فى بكور اليوم التالى فى مواصلة الرحلة الى أسيوط ، وتوقفت الباخرة عند آخر محطاتها ، فوصلنا الى أسيوط عند الظهر ، وسلكنا طريقا تحفه الأشجار أدى بنا الى داخل المدينة . ومدينة أسيوط هى أكثر مدن مصر أهمية جنوب القاهرة ، فهى مقر المدير وبها تجارة مزدهرة ومبان ممتازة ، حقيقة ان المنازل - حتى هنا - مشيدة من الطين ، لكنها أكثر ارتفاعا وبها زينات وزخارف عربية أفضل مما هو موجود فى المدن الواقعة الى الجنوب منها : فالأذن والبوابات الجميلة تلفت نظر المسافر ، والطرق التى تحفها أشجار الجميز والبساتين المثمرة تحيط بالمدينة من ناحية النهر .

وركبنا دوابنا وسرنا فى بعض الطرق الضيقة ، وبين المرائب Stalls المستدة بطول إحدى الأسواق المهمة التى ينتهى اليها طريق قافلة دارفور - وكانت السوق عامرة بريش النعام والعاج . وللأواني الفخارية الأسيوطية الحمراء والسوداء خصوصيتها ، وكانت المناظر فى السوق شائعة جدا بما فيها من حركة ونشاط . وكان كل سكان وادى النيل من مختلف المديريات بأزيائهم البهيجة المختلفة - موجودين هنا جنبا الى جنب مع الفلاحين الحقيقيين الذين يمارسون التجارة .

وعبرنا المدينة ووصلنا لسفح جبال منحدره بعد أن مررنا ببحر يوسف المعروف . وفى أسيوط تقترب الجبال من النهر أكثر فأكثر ويضيق السهل الزراعى كثيرا جنوب المدينة وشمالها بحيث لا يتجاوز

بضع خطوات • وصعدنا ممرا منحدرًا ضيقًا لنلقى نظرة على الكهوف والمعابد الجنائزية. Sepulchral chapels المقامة فوق الجبال بين الصخور والأحجار في منتصف المسافة بين السفح والقمة •

وكان لهذا المكان أهمية خاصة في التاريخ القديم ، وقد اتخذت أسيوط Ossiut - أكبر مدن صعيد مصر وأكثرها أهمية - اسمها الحالي من الاسم القديم سيوط Siut • وكان لأنوبيس Anubis - الربة التي تحمل رأس ابن أوى - معابدها ومذابحها هنا • لقد كانت كل حيوانات الفصيلة الكلبيية - خاصة الذئب - هنا ، لذا فإن الاسم الاغريقي للمدينة هو ليكوبوليس Lykopolis وتعنى مدينة الذئب • وفي كهوف الجبال التي تقع خلف أسيوط والتي تشكل أنوفا في سلسلة تلال الصحراء الليبية ( المصرية الغربية ) نجد حيوانات الأمرة الكلبيية لا تزال - حتى الآن - محنطة وبحالة جيدة ، وبالقرب القريب منها جبانة مشهورة تعود لأيام الأسرة الثالثة عشرة ( ٢٠٠ ق م ) والمخصصة لكبار موظفي الدولة في هذه الفترة • وقد دخلنا إحدى هذه الغرف المحفورة في الصخر فوجدناها واسعة وبصرف النظر عن شكلها الخاص ، فأننا لم نجد بداخلها ما يستحق الرؤية •

وقد انقسمت مجموعتنا الآن ، فذهب بعض الرفاق يتجولون ببنادقهم صوب المدينة ، بينما تسلفت أنا خلال ممر ضيق الى الحيد ، وحطيت بالقاء نظرة على المدينة الجميلة ووادي النيل والجبال الغربية ( جبال صحراء مصر الشرقية ) بينما كانت الهضبة الليبية ( صحراء مصر الغربية ) خلفي •

ومبطلت للوادي مستخدما ممرا آخر حيث الصخور تنحدر بشدة ، وبين أكوام من الأحجار والكتل الصخرية ، واجتزت بعض الكهوف الجنائزية funeral Caves وبعض الهياكل العظمية وأخيرا وصلت للمقابر الاسلامية • كانت مدينة موتى اسلامية واسعة بها كثير من الآثار الجميلة الجديرة بأن يزورها المرء • انها تمتد الى الغرب من أسيوط وتصل عند أحد طرفيها الى حدائق مزهرة وأرض زراعية ، كما تصل عند طرفها الآخر الى قفر صحراوي •

وسرت عائدا في المدينة وتلكأت في شوارع الأحياء البعيدة ملاحظا أساليب الناس وطرائقهم ، وفي الوقت نفسه أطلقت بندقيتي على بعض نسور الجيف بين المنازل ، وبعد الظهر عدت مخترقا أفضل أحياء المدينة لأتناول غدائي على ظهر السفينة •

وعند الغروب ركبنا جميعا مرة أخرى الى سفوح الجبال وتمركزنا عند نقاط مختلفة ، فذهب بعض الرفاق الى المقابر ، بينما أخفيت أنا نفسي في أحد مباني الأضرحة الإسلامية • كان المساء جميلا • السكون يعم المكان فلا تسمع الا همس التسييم الخفيف يداعب الأوراق في قمم أشجار الجميز •

ولسوء الحظ ، لم تأت نحو مكنتى أية طريدة من ذوات الأربع ، لكنني رأيت أكثر من عشرين نسرا كبيرا على البعد ، أنت واحدًا اثر الآخر ، لتحط فوق جرف عال ، وكان أمرا مسليا أن أراقب كيف تتعارك هذه الطيور لتهيئة مجثمها الليلي ، فلم يكن أى منها براغب أن يجثم الى الأدنى من النسور الأخرى ، ومضى العراك بينها فترة طويلة قبل أن تنجح في تنظيم نفسها بأن تجثم جميعا متجاورة ، في شق طويل في الصخرة •

وبعد ساعة كان على أن أغادر المقابر فقد اقترب وقت متابعة الرحلة ، فالتحقت برفاقي عنده بحر يوسف ، وكانوا قد رأوا واحدا من حيوانات ابن آوى وذئبا كبيرا ، لكنهما - لسوء الحظ - كانا بين الصخور وبعيدا عن مجال البنادق ، وكان اللوق الكبير قد رأى أيضا واحدا من طيور النزافيات Vampire ( وهو طائر في حجم الغراب ) في اللحظة التي كان فيها هذا الطائر المقرف خارجا من إحدى المقابر •

### الوصول للبدرشين :

وركبنا بسرعة عائدين لمرسى سفينتنا ، وودعنا بحرارة أدميرالنا الأسود المحترم ، وودعنا أيضا سفينتنا الشجاعة التي كانت مسكننا لنا طوال الأيام الممتعة الماضية • انها أيام جميلة لا تنسى ، وذهبنا الى محطة السكة الحديد القريبة • وسرعان ما اتجه القطار شمالا مغادرا أسيوط وسرعان أيضا ما غشنا النوم اللذيذ ، وعندما استيقظت في بكور اليوم الخامس عشر من الشهر ، كانت الشمس تتفلقل في عريقتنا وكنا قد وصلنا بالفعل لمحطة صغيرة مهمة هي محطة البدرشين • فتناولنا افطارنا في غرفة انتظار قذرة ، ثم بدأنا الركوب الى منف ( ممفيس Memphis ) • وكان الطريق يمر بين برك سيخة وحقول جيدة وغابات نخيل حتى وصلنا لقرية ميت رهينة Mitrahenne الراقدة بين خضرة كثيفة يانعة ذات طابع خضري أفريقي •

وسأترك برجش يحدثنا عنها :

« لقد ولت للأبد حكايات بهاء مدينة منف Memphis القديمة وعظمتها ، أو كما سميتها النقشوش المصرية ، ممنوفر Mem-nofir وتعنى ( المرعى الخصب Good pasture ) فمعابد منف وقصور ملوكها القدماء الذين اتخذوا منها عاصمة قد محيت من فوق سطح الأرض ، وليس ثمة حجر واحد مما بقى منها يذكرنا بمؤسسى المدينة الأول . أما الآن فالمنطقة محاطة بأسوار طينية مهدمة تمتد على طول حزام النخيل المحيط بقرية ميت رهينة ( وهى مينيات - را - هاننو old Minet R. hannu ) الى الشمال والى الجنوب محددة - أى الأسوار - زمام ممفيس ( منف ) الواسع ، الحاضرة السائلة للوطنية المقدسة ( الحرم الوطنى ) فهنا كانت توجد معابد الاله بتاح المبدع العظيم وصانع كل الأشياء المخلوقة . وحرم هذا الاله كان محميا بخطوط قوية محصنة ، وكانت هذه التحصينات تشكل قلعة المدينة التى يقع بداخلها ما يعد بمثابة تمثال ربة الحكمة أثينا الذى ارتبطت سلامة طروادة بسلامته ، فقد ارتبطت سلامة الامبراطورية المصرية بسلامة ما بداخل قلعة منف ومن ثم فقد دافع المصريون بشدة عن المدينة ضد الأعداء الداخلين والخارجيين خلال حقبة التاريخ المصرى .

والآثار القليلة التى لا تزال باقية ممتدة على أراضى هذه البقعة المقدسة تعود لمبانى عصور متأخرة : معابد أراد بعض الملوك الذين ترجع أصولهم الى طيبة ، بانشائها ، أن يقدموا الدليل على تعاطفهم وولائهم للحرم المقدس القديم للمملكة (المصرية) ، فرمسيس الثانى والد ( سيدنا ) موسى بالتبنى Adoptive father ، ويسمى أيضا سيزتورا Sestora أو ( سيزوستريس Sesostri ) ولد سنة ١٣٥٠ ق.م . يعد على رأس هؤلاء المؤسسين الملكيين . وبقايا المبانى الاولى التى أسسها والتى كانت تعد على نحو ما امتدادا لخرائب معابد أقدم - مطروحة الآن ومبعثرة فوق الأرض . وتمثاله الضخم الذى كان - ذات يوم - شاهدا أمام بوابة معبد بتاح العظيم Ptah - يعد ( أى هذا التمثال ) واحدا من روائع النحت المصرى ، وهو منحوت من حجر جبرى جميل Limestone يشبه الرخام ، وهو ( أى التمثال ) مطروح الآن فى منطقة يضرها ماء النيل سنويا فى موسم الفيضان .

وملامح هذا الفرعون العظيم تذكر - بحيوية ووضوح - بتمثاله الجميل فى متحف تورين Turin . والقطع العديدة حول تمثال رمسيس - والتى تحمل أسماء خلفائه خاصة ابنه الملك مينبتاح Mineptah ( الفرعون الذى خرج اليهود فى عهده - من مصر ) - تبين

أن هؤلاء الملوك قد قدموا القرابين المختلفة أنواعها لاله مصر ( لرب مصر  
الأعلى Supreme divinity ) في بواكير التاريخ المصرى .

فالثور المقدس أبيس ( هابو Hapu كما أسماء المصريون القدماء )  
كان مكرسا للاله نفسه - يتاح باعتبار هذا الاله تجسده ( حل ) في جسده  
الثور ، وكان الثور أبيس قائما بجانب المعبد العظيم في إحدى البساتين  
الخارجية الملحقة بالمعبد ، وكان يحظى بالتقديس والعناية الفائقة . وعند  
موت الثور المقدس جرت له مراسم دفن مهيبه تكلفت تكاليف كثيرة ،  
وحملت جثته المحنطة المزينة بزينات كثيرة - في عربة ، وجيء بها الى  
مقبرة أبيس « Apis » . وركبنا من منف خلف الأراضى الزراعية صاعدين  
في صحراء مصر الغربية ( الصحراء الليبية ) الى أهرام سقارة بعد منزل  
ماريت Mariette الى مقابر أبيس .

المنطقة هنا تشبه تماما منطقة أهرام الجيزة . اذ يمكن رؤية أهرام  
الجيزة عندما يكون المرء عند أهرام سقارة ، وكذلك يمكن رؤية القاهرة  
وقلعتها ، وجبال المقطم .

وتوغلنا - مزودين بالمشاعل - في شبكات طرق مقابر أبيس تحت  
الأرض . لقد بدت لا نهاية لها ، وكان هواؤها جافا مقبضا .

• وقد كانت الثيران - في أكثر فترات التاريخ المصرى ازدهارا  
وكذلك في الفترة المتأخرة - توضع في تابوت ضخمة من الحجارة الصلدة  
وتطرح في حجيرات منفصلة في ممرات تحت الأرض ، وكانت ترتب في  
مواضعها ترتيبا زمنيا ( كرونولوجيا ) ، ولكل حجيرة ( قبر ) نقوشها  
الخاصة بها . ومقابر أبيس في منف التى هيئت الآن بأفضل الوسائل  
ليزورها الأجانب - تضم الآن أربعة وعشرين من هذه التوابيت الضخمة .  
وسلسلة الثيران المقدسة المدفونة هنا تبدأ من منتصف القرن السادس  
عشر قبل الميلاد وتنتهى زمن الامبراطور أغسطس Augustus .

أما الثيران التى عاشت قبل هذه الفترة فقد دفنت في هرم سقارة  
المنحدر ، ففي داخل هذا الهرم توجد مساحة واسعة مقنطرة بها محاريب  
وممرات منفصلة . وبقايا عظام الثيران التى بقيت تشير بوضوح الى الهدف  
من انشاء هذا الهرم .

وتناولنا افطارنا في منزل صغير بالقرب من مقابر أبيس وكان عالم  
المصريات الشهير ماريت Mariette - الذى توفي مؤخرا - قد أقام هذا  
المنزل لأغراض الدراسة ، وبعد ذلك ذهبنا الى المدرجات الدنيا للهرم  
الشهير لاصطياد حيوانات ابن آوى . وما كاد العرب يبدعون فى تسلق



المدرجات حتى مر - كالبرق - واحد من حيوانات ابن آوى ، هابطا المدرجات ، ولم أتمكن من إطلاق بندقيتى تجاهه . وبعد جولة الصيد الصغيرة هذه زرنا الأهرامات الأخرى القريبة ، وكان الصغير منها قد افتتح مؤخرا وهو يعود الى الملك بيبي الأول Pepi I .

### عن الأهرامات وأبى الهول :

وليسمح لى القارىء أن أقتبس بعض الملاحظات عن الأهرامات بشكل عام فى منف والمجيزة ، وأيضا عن ( أبو الهول ) تفضل بها صديقى برجش :

« اله منف الوطنى القديم ، بتاح ، بقدرته الخاصة كملك للموتى ، وحام للراجلين ( الموتى ) حمل اسم سوكار Sokar . وهو بقدراته الخاصة تلك يعد مماثلا تماما للاله أوزوريس الذى هو بمثابة اله لكل مصر . والأماكن المخصصة لعبادته تقع فى قرية سفارة العالية التى تحمل الاسم المصرى القديم نفسه الذى يعنى ( بيت سوكار house of Soker ) . وقد اشتق الاسم العربى للقرية من الاسم المصرى القديم . ويحمى اله الموتى مقابر أهل منف الكائنة حول الأهرام بشكل منظم ويعود أقدمها الى زمن ملوك منف . وقد أقيمت مدينة الموتى الجنائزية مشيدة بالحجارة وتسمى « بيوت الخلود houses of eternity » ويشكل ما بين صفوف هذه المعابد شوارع مدينة الموتى . وتحت هذه المعابد توجد الغرف الحقيقية التى ارتاح فيها الموتى راحتهم الأبدية فى تواييت حجرية أو خشبية . وأفضل قبر من حيث بقائه فى حالة جيدة من أيام ملوك منف ، هو هذا القبر الذى يعود لمصرى ذى مكانة رفيعة اسمه ثى Thi ، وقد عاش فى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وقد جهز لنفسه معبدا بالقرب من أهرامات هؤلاء الملوك الذين تولى فى ظلهم منصب آمر الدولة officer of State .

وتعتبر الرسوم الثرية فى ألوانها والدقيقة والرقيقة والمتقنة على جدران هذه المقابر والمعابد ذات قيمة عالية لكثرة ما بها من مشاهد عن الحياة لدرجة أنها تضع أمام ناظرنا بشكل حى تماما أحوال الزراعة والصناعة ومراسم تقديم الأضحيات فى هذه الحقب الموهلة فى القدم من تاريخ الانسانية .

ويرجع وجود هذه الرسوم الى الاعتقاد أنه فى العالم الآخر ، ستبقى الممتلكات الخاصة بالأثرياء وملوك الأراضى المميزين تابعة لأصحابها كما كانت فى الحياة الدنيا . ولم تترك هذه الرسوم مظهرا من مظاهر الحياة ولا منشطا من منشطها الا سجلته : الملاحه ، توليد الماشية ،



ووفقا لما ذكره برجش باشا ، فقد كنا أول أوربيين يزورون هرم الملك ميمى منذ فتح .

وحتى في الأزمنة الكلاسية فإن أهرامات الجيزة العظيمة كانت تعد من بين عجائب الدنيا ، ولا زالت هذه الأهرامات تثير إعجاب معاصرينا حتى الذين لا يعجبهم العجب منهم . فالكتل الحجرية الضخمة المستخدمة في تشييدها ، بل وحتى طريقة توزيعها في هذه المباني العملاقة ليس لها نظير في أى مكان آخر . وهرم الجيزة الأكبر كان ارتفاعه - في البداية - أربعمئة قدم وخمسة عشر قدما ( ٤١٥ قدما ) ، وقدرت أحجاره بما لا يقل عن خمسة وسبعين مليوناً من الأقدام المكعبة ( ٧٥٠٠٠٠٠٠ قدم مكعب ) ، ومن التقديرات أن الأحجار المستخدمة في بنائه تكفى إقامة سور بارتفاع ستة أقدام حول فرنسا . وقد حدثت النقوش اسم صاحب الهرم - أنه خوفو Chufu ويكتبه المؤلفون الكلاسيون Cheops الذى حكم مصر سنة ٢٧٠٠ ق.م . أمام هرم ابنه وخليفه خفرع Chafra ( وهو Chephres بالنسبة للاغريق ) فقد تم انشاؤه في اتجاه الجنوب الغربى من الهرم الأكبر ، ولا يزال هذا الهرم الثانى ( هرم خفرع ) يحمل غطاءه الملاطى old Coating الخارجى .

وعند سفحه كان يوجد هرم خاص على شكل معبد شيد من كتل حجرية كلسية وجرانيتية ومرمرية ( الأستر ) ، ووجد طريق يمتد الى الشرق ربط هذا المعبد بما يسمى معبد أبى الهول Temple of the Sphinx وبقايا هذا الطريق لا تزال واضحة ويدل على أنه بحالة جيدة ، ، وقد تم تنظيفه مؤخرا من رمال الصحراء . وأرضية معبد أبى الهول يوجد بها فى قاع بئر ممثلة الآن بالماء - عدة تماثيل للملك خفرع تم اكتشافها . وتحظى باهتمام خاص من السائحين الأوربيين . لكن ليس من نقوش على الجدران الجرانيتية والمرمرية لهذا المبنى العملاق ، وظل الهدف من انشاؤه لغزا لم يحل ! .

وفيما يلي قائمة بالآهرامات ومشيدتها من الملوك

الاميرة	الاسم باليونانية	مؤسسه	الهرم	المكان
الرابعة - ١	سوريس Sorix	سنفر Snefru	خا Cha	أبو رواش Roash
الرابعة - ٢	Chicops	خوفو Chufu	خوت Chut	الجيزة Gizeh
الرابعة - ٣	Chophren	خفرع Chafra	وير Uer	
الرابعة - ٤	Mycerinus	منقرع Menkara	هير Hir	
الرابعة - ٧	Sebercheres	Scheps-Kaf شيسكاف	كيباه Kebeh	Zauit el-Arian
الخامسة - ١	Usercheres	أوسركاف Userkaf	أب ست Ab-set	Rigah
الخامسة - ٢	سيفر Sephres	سحورع Sahurah	خابا Chaba	أبو صير Abusir
	؟	ككا keka	؟	
	؟	نوفرا Nofra	؟	
الخامسة - ٦	Rathures	رانورس Ranurer	منست Menseet	
الخامسة - ٧	Meruhheres	مكاهور Menkahor	نوتر - ست	سقارة Sakkara
الخامسة - ٨	Tatcheres	تاتكارا Tatkara	نوفر	
الخامسة - ٩	Onnos	وناس Unas	نوفر - ست	
السادسة - ١	Othoes	تتا Teta	تات - ست Tat set	
	Usercheres	أوسركاف Userkara	؟	
السادسة - ٤	Phiops I	بيبي الأول Pepi I	من - نوفر Men-Nofer	
السادسة - ٥	Menthsuphis	هينميساف Hunemsaf	خا نوفر Cha-Nofer	
	Piophs II	نوفركارع Noferkara (Pepi II)	من - آته Men-Anoh	

والنصف الأدنى من ( أبو الهول ) مغمور في الرمال وتسميه  
النقوش هو Hu ، وتصفه باعتباره تجسيدا رمزيا لاله الشمس باسمه  
هورماشو ( هورماخو ) Hormachu ( حورس ) ، وملاح التمثال التي  
اعتراها - لسوء الحظ - تدمير شديد ، تمثل موجهه الملكي  
. its royal author

وثمة شريط طويل من النقوش بين القدمين الأماميتين لجسم الأسد ،  
لكن هذه الكتابات مطبورة الآن في الرمال وهي تسجل حلما مذهشا  
لواحد من الفراعنة المصريين الأواخر . فقد نسب الى تحتمس الرابع  
Thutmes IV ( دفن حوالي ١٥٣٠ ق م ) هذه الرؤيا :

« انظر ، لقد كان ميالا ليصطاد - للترفيه عن نفسه - في زمام  
مقاطعة منف - جنوبا وشمالا - حيث قذف بسهامه النحاسية على الهدف ،  
فاصطاد أسود وادى الغزال » .

لقد أتى هنا في عربته الملكية التي تجرها خيول أسرع من الريح .  
وكان معه اثنان من خلمه لا أحد يعرف عنهما شيئا .

وانظر اليه عندما يحين وقت الراحة ، ذلك الوقت الذي يهبه  
لخادمية ، فانه يكرس هذا الوقت لتزيين ( أبو الهول ) الخاص  
بالاله هورماشو Hormachu ، الى جوار معبد الاله سوهار Sohar  
في مدينة الموتى ، والربة رانتوني Ranuti ، بتقديم القرابين من القمح  
والزهور ، ويصلي لايزيس Isis التي أمر من أجلها ببناء السور الشمالي  
والسور الجنوبي ، ويصلي للاله مسخت Sochet في جزايس ( سخا )  
وللاله سوتيك Sutek من أجل السحز الجليل الباقي من عصور مضت  
في هذه البقعة المقدسة ، بل وحتى للمناطق التي تقطنها آلهة بابلليون  
( القاهرة القديمة ) وحيث يوجد الطريق المقدس للآلهة في الجانب  
الغربي من هليوبولس Heliopolis . من أجل مشاهدته أبي الهول  
الاله العظيم الشامخ شبر Cheper الباقي في هذا المكان ، الأعظم بين  
الأرواح والأكثر عظمة . الذي اليه يتوجه كل قاطني منف وكل مدن مصر  
بالعبادة رافعين أيديهم نحو وجهه ، ولتنحدر له الأضاحي .

و لقد حدث ذات يوم يوم أن الأمير تحتمس أتى هنا في رحلة في  
منتصف النهار تقريبا وبعد أن استظل بظل هذا الاله أخذته صفة من  
النوم فرأى فيما يرى النائم في اللحظة التي تكون فيها الشمس وقفت  
في السميت ، لقد بدت له كما أن هذا الاله الجليل تحدث اليه بغمه حديث  
الأب لابنه قائلا : « شاهدي ، وانتبه لي جيده أنت ابني تحتمس » . آفة

أبوك هو مامشو ، أنا الإله شير - را - تم . ساهيك الملك . ستليس تاج  
مصر على عرش اله الأرض كب abak ، ستصبح الأرض كلها لك بطولها  
وعرضها يضمها نور العين المشعة لرب العالمين Lord of all ستأتيك النروات  
من المناطق الداخلية وستجبي كثيرا من كل الناس وستنعم بعمر مديد .  
وستحظى بالأفضل لأن وجهي قد استدار لك وقلبي تعلق بك . رمال  
الصحراء قد غطتني . قل أنك ستفعل وفقا لرغبتى ، عندئذ سأعرف أنك  
ابنى المدافع عنى . اقترب منى ودعنى أتحد بك » .

« عندئذ استيقظ الأمير وكرر ما سمعه للتو . لقد فهم قول هذا  
الإله ووعاه فى نفسه ، بينما هو يقول :

« فى الحق انى أرى الناس فى معابد منف . يقدمون الأضحيات  
لهذا الإله دون أن يفعلوا شيئا لحمايته من الرمال عمل الملك خفرع ،  
الصورة ( التمثال ) التى رفها ( كرسها ) للإله ثوم - موماشو  
Tom Hormachu ... » .

واعترى النص تشويه بعد ذلك وتمذرت قراءة ما بقى منه . وإن  
كان من السهل تخمين ما حدث بعد ذلك . فقد أزاح تحتمس الرمال من  
حول ( أبو الهول ) ومن ثم توج ملكا لمصر . وهى حقيقة ليست ذات  
قيمة تاريخية كبيرة ، لكن الطريف أنه حتى فى القرن السادس عشر قبل  
الميلاد كان أبو الهول - كما هو الآن - مطمورا الى نصفه فى الرمال  
العميقة . وسأضيف هنا الى هذه المقتطفات التاريخية بعض الملاحظات  
عن الفيوم لأنها تمتد الى الجنوب من منف القديمة . يرجع الاسم الحديث  
الى الكلمة القديمة با - جوما Pa-Juma وتعنى أرض البحيرة ، والقصود  
هو بحيرة موريس Moeris التى كانت شهيرة جدا - لكنها الآن تلاشت .

وكانت بحيرة موريس - فيما مضى - الجزء الجنوبي الشرقى  
من واحة الفيوم ، وكانت بمثابة مخزن طبيعى للمياه متصل بالنيل عن  
طريق قناة عريضة ونظام للتصريف يؤدى لوصول فائض مياه الفيضان  
اليها (٤) .

وتستقبل القنوات ما يكفى لرى الأجزاء الرئيسية فى الواحة  
( الفيوم ) وتحول هذا الحوض ( مخزن المياه ) الذى كان ذات يوم غير  
ذى جدوى بمرور الوقت الى حديقة للإله Garden of God ونتيجة لاهمال  
الحكومة اختفت البحيرة بعد أن وجد ما بقى بها من مياه طريقه الى بحيرة  
قارون . وكل المنطقة المحيطة بالفيوم كان يعتبر بالنسبة للمصريين  
القدماء - شيطانيا Satanic لذا فهذه المنطقة لم تظهر أبدا فى القوائم  
القدسة للمدن ولا قوائم أسماء المقاطعات districts .

فهنا كانت مملكة ست ، وهو بمثابة الشيطان بالنسبة للمصريين ،  
وهنا مركز عبادة التمساح الذى يكرمه بقية المصريين خدم أوزيريس .  
وكان يوجد معبد مخصص للتمساح فى مدينة كروكوديلوبولس  
Crocodilopolis ، مجاور لمدينة الفيوم الحالية .

وقبل أن أترك هذه المناطق المصرية المهمة التى لفتت انتباهنا طوال  
الفصلين الأخيرين للتراث الثالث للمصريين فى عصر الفراعنة سأضيف  
القوائم التالية (\*) .

### \*\*\*

وبعد أن تسلقنا هرم الملك ييسى الأول ببعض المشقة والمعاناة ،  
غادرنا الصحراء وآثارها القديمة وركبنا عائدِينَ إلى الأرض الزراعية .

واجتزنا أثناء الطريق مزارع الأرزقة ( أشجار نخلية ) Areca (\*\*)  
التي تشكل بيئة مناسبة جدا للأغراض الصيد فأينما أن يقوم خدمننا  
بإثارة الطرائد فيها وشاركهم فى ذلك بعض الفلاحين ، ومما يؤسف له  
أن مالك الأرض ظهر فجأة ورغب البنا ألا ننتك حرمته ممتلكاته .

وكان هذا الشخص الذى لا يعرف التراجع ذنبيا عجوزا ، وكان  
أغا ( طراشيا ) ضخما حجمه كآته جان ، لكنه كان نحىلا ذا ملامح مترهلة  
وكان يلبس عباءة واسعة وعريضة - انه واحد من أئسج وأقبح من رأيت  
على الإطلاق ، وكانت نظرتة عدوانية وقد اكتسب من مهنته المحترمة قدرا  
كبيرا من المال ، وهو يقضى الآن شيخوخته فى ممتلكاته الواسعة .  
وتجنبنا الخلاف معه فركبنا للبرشين ومن هناك أوصلنا القطار للقاهرة  
فى أقل من ساعة ، وما نحن مرة أخرى - بعد هذه الرحلة الطويلة المليئة  
بالخبرات الممتعة - نعود للقاهرة الجميلة - مدينة الخلفاء .

---

(\*) الحقنا هذه القوائم بأخر هذا الفصل - ( المترجم )

(\*\*) يسمى أيضا نخيل الكوئل - ( المعجم الزراعى )

الاقسام الجغرافية والادارية لمصر  
كما وردت بالانبار  
( ١ ) با - تو - ريس ( مصر العليا )

The Political And Geographical Division of Egypt According To The  
Statement on The Monument.

A. Pa — To — Ris, or The Land of the South.

Province	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Teph	Alfih	Aphroditopolis	Cow
2. Smenhur	Ismen	Ptolemais	Ram
3. Chinsu	Ahuas	Heracleopolis Manga	Ram
4. Pimaza	Pemdigc	Oxyrinchus	Beaked bandolus (fish)
5. Habennu	Hebe	Hipponus	Dogs
6. kasa	Kais	Cynopolis	Dogs
7. Hibonu	Minieh	Hiu	Ram
8. Chimunu	Aschmun	Hermopolis Magna	Ibis
9. Kus	Kos	Cause	Dogs
10. Siaut	Ossiut	Lykopolis	Dogs
11. Nientbaki		Hieracoupolis	Falcon
12. Shashelf	Sholp	Hypselis	Ram
13. Tebu	Atfi	Aphroditopolis	Cow
14. Apu	Abu	Panopolis	Ichneumon
15. Abidu	Harabat	Abydus	Beetle
16. Hau	Hon	Diospolis Parva	Cow
17. Tentaris	Dendera	Tentyra	Cow
18. Kobti	Kift	Koptus	Ram
19. Ni-amon	Lugox-Karnak	Thebae	He-goat
20. Nechab	El-kab	Eileithyiaopolis	Vulture
21. Teb	Edfu	Apollinopolis M.	Falcon
22. Ab	Assuan	Elephantine	He-goat



( ب ) يا - تو - انتخت ( أرض الشمال - الدنيا )

PROVINCE	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Kosem (Goshen of Scripture)	Fakus	Phakusa	Hawk
2. Am	Far-ama	Pelusium	Serpent
3. Pibast (Pibeseth of Scripture)	Tell-bast	Bubastis	Cats
4. To-mchit (No-amon of Scripture).	Damiat	Diospolis	He-goats
5. Bindad	Amdid	Mendes	He-goats
6. Chirum	Ashmun	Hermopolis	Ibis
7. Zaan (Zoan of Scripture)	San	Tanir	Falcon Gull
8. On (On of Scripture)	Matarieh	Heliopolis	Ox
9. Thabennuter	Sammanud	Sebennytus	Falcon
10. Kahebes	?	Cynopolis	Crocodile
11. Hatarihab	Etrib	Athribis	Ox
12. Pusisi	Abusir	Bpsiris	Ram
13. Pitom (also in Scripture)	Tell-el-Kebir	Patumus	Eel
14. Sontinofer	Alexandria	Gyynaecopolis	Crocodile
15. Chasun	Hasse	Sais	Ram
16. Sai	Sa	Prosopis	cow
17. Zokpir	Shebshir	Apis	Crocodile
18. Ni-ent-hapi	?	Letopolis	Ox
19. Sochem	Ausim	Mcmphis	Hawk
20. Menofir (Noph of Scripture)	Munf		Ox

## تعليقات المترجم على الفصل الخامس

(١) راجع تعليق رقم ٧ بالفصل الرابع .

(٢) راجع تعليقات الفصل الرابع .

(٣) يلاحظ القارئ الكريم أن دلالة الكلمة هي اللغة العربية هي الدلالة نفسها التي يحملها اسم هذه الربة المصرية القديمة .

(٤) تم وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية أن بحيرة قارون هي نفسها بحيرة موريس .

## الفصل السادس

يوم في القاهرة - حديقة الأزبكية - مولد الحسين -  
الى الجزيرة والجيزة - الصيد عند الهرم - الرحلة الى  
المنزلة - دحياط - بقايا الهكسوس - جزر المنزلة -  
بورسعيد - البرود الانجليزى - ارتطام في القنطرة -  
من بورسعيد للاسماعيلية - الى القاهرة - شجرة مريم -  
مزرعة النعام - الحمام التركي - القلعة ومسجد محمد  
على - شخصية محمد على - مذبحه المائيك - بشر يوصف  
- الكتبخانة - الحاوى - الى القناطر - البراويش -  
الرحلة للسويس - عن برزخ السويس - سيناء - عيون  
موسى - لقاء مع دى ليسبس العجوز - الى بورسعيد -  
مغادرة مصر - رسوم الفنان بوسنجر \* تعليقات  
المرجس \*

ووصلنا من المحطة الى مدينة الخلفاء القديمة ( القاهرة ) بعد أن  
قطعنا طريقا جميلا تحفه الأشجار وعبرنا جسرا ضخما على النيل ، وكانت  
شوارع المدينة تنص بالحياة ، فالوقت كان عصرا \*

العربات والعرجية ، والسائرون على أقدامهم \* سرعة ذات طابع  
غربي ، ونشاط جنبا الى جنب مع قوافل الجمال والنسوة القرويات  
المحجبات والحير الناهقة والسقامون والمتسولون العمى - وكل ما له  
رائحة الماضي ، وكنا سعداء أن نعود مرة أخرى للاستمتاع بالحياة في  
القاهرة \* وسرعان ما وصلنا بعد أن مررنا بالحى الغربى وعبرنا جسر  
ترعة الى طريق شبرا الذى تحفه الأشجار ومن ثم الى مقر اقامتنا في قصر  
النزهة \*

وبعد أن استحممنا وتناولنا عشاءنا شغف بعضنا سحر الليالى  
الأفريقية القمرية فاتخذنا سبيلنا الى داخل المدينة بعربات مستأجرة .

### حديقة الأزبكية :

وتوقفنا في حديقة الأزبكية وتجولنا بين الأشجار والنباتات وبالقرب  
من البرك وحول مساقط المياه الصناعية والصخور والاكشاك \*

وكان الناس جالسين فى معظم المطاعم - خاصة أهل الشرق الأدنى والعاملين فى التجارة - ورأينا الشباب يقضون وقتهم فى الشرب والاستماع للموسيقا ولعب الورق .

وتعتبر حديقة الأزبكية هذه نعمة عظيمة للقاهريين . خاصة فى فصل الصيف . انها حديقة تلقى العناية ويتم الاتفاق عليها بسخاء كما انها مزدهرة ويانة بفضل المناخ الملائم . ويبلغ تأثيرها أروع درجاته عندما يكون القمر بدرا ، أما بالنسبة لنا فقد بدا لنا قمر القاهرة شاحبا ، ولا غرو فهو بالفعل كذلك اذا قورن بقمر أسوان .

### مولد الحسين :

ومن حديقة الأزبكية انطلقنا لنجول خلال الحي العربى القديم . وقد اخترنا أمسية مناسبة . وكان ذلك من محاسن الصدف اذ كان المسلمون يحتفلون بمولد الحسين the feast of the great El-Hossein لنا ، فقد استمتعنا بمنياظر شائقة للغاية لمهرجان شرقي ليلي كان معقودا فى الشوارع القريبة من المسجد الذى يحمل اسم « مسجد الحسين » .

جموع كبيرة من الناس كانت تتحرك فى الشوارع الضيقة غدوا ورواحا ، والحوانيت والمقاهى مشرعة أبوابها والمصابيح والشموع مثبتة الى البيوت ، وقد بسطت سجاجيد زاهية فى الطرقات ، وتندلى فى الشوارع الثريات الزجاجية معلقة فى حبال ملونة ، وكل المنازل مزينة بزينات غالية أو رخيصة وفقا لمدى ثراء ملاكها . كان كل شئ مبهجا يغمره الضوء ، وكانت الألوان زاهية متعددة ، وكانت المشاهد خصبة خصوبة تفوق الوصف .

وراح المسلمون من مختلف الطبقات والمهن يدفع بعضهم بعضهم الآخر ( يزغد بعضهم بعضا ) ، لقد كان الجميع يتزاحمون وهم فى طريقهم لمسجد الحسين الذى بدا غي أحسن زينة ، وقد تبدلت المصابيح من أبوابه الواسعة المشرعة - وترى فى هذا الجمع المزدحم المتجه للمسجد - الفلاحين التقاعدين بأثوابهم الزرق والسقائين وهم يصيحون ، والمتسولين وهم يشكون والعرجان وهم ينتحبون ، كما ترى البدو بعباءاتهم البيضاء والتجار المكتنزين لحما ، والمحترمين الذين يرتدون ملابس ذات ألوان مفرحة ويضعون عمائم خضرا على رؤوسهم بزعم أنهم من سلالة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) والجنود ويأتمى مختلف البضائع والأشياء .

ومن هنا توجه الجمع المزدحم الى الجانب الأعلى من الطريق حيث الحرة الذين يلعبون بالألعاب والمشعوذون والراقصون والراقصات مما أضفى على الطريق روح السوق الشرقية .

وكان معنا فى هذه المناسبة برجش باشا Brugsch فتصبحنا بعدم الذهاب للمساجد ونحن فى ملابسنا الغربية لكثرة المتعصبين به فى ذلك الوقت ، ومن ثم فقد شققنا طريقنا الى حيث المشعوذين والحواة لتراقب الحياة الوطنية الحقيقية للشعب . الشارع يصعد بنا تصعدنا وئيدا ، لذا فلم نتمكن من القاء نظرة قوية شاملة على هذا الخليط وعلى الألوان الغربية والأصواء . لقد بدأ غريبا ومسمورا بالنسبة للمسلمين الشرقيين وذكرنى بشدة بالباليه البندقى ( الفينيسى ) الذى يمثل مهرجانا شعبيا صينيا .

وبعد فترة عدنا الى الحى الأوربى حيث كانت المقاهى ومحلات النبيذ لازالت مزدحمة . هنا - كما فى أى مكان فى بلاد الجنوب - يتحول الليل الى نهار وراينا الأوربيين الشرقيين من أغنياء وفقراء لكنهم كانوا يضعون الطرابيش فوق رؤوسهم ويلعبون البلياردو والورق أو يستمعون الى الفرق الموسيقية .

### زيارة الخديو :

وفى صباح اليوم التالى زرنا الخديو Viceroy لنشكره للكرم الفائق الذى حظينا به أثناء رحلتنا النيلية . ولم تكن زيارتنا هذه رسمية ، لذا فقد اتجهنا قبل الظهر تماما قاطعين الطرقات غير المزدحمة الى القصر وقضينا ربع ساعة مع الخديو تشرب القهوة المعتادة وندخن السجائر الممتازة وسأل ( الخديو ) بشوق بالغ عما نخلصنا به من تجارب فى رحلتنا النيلية المبهجة .

### الى الجزيرة والجزيرة :

وعدنا من القصر سالكين اقصر الطرق الى قصر النزهة لثرتنى ملابسنا الرياضية ، وبعد فترة راحة قصيرة بدأ جمعنا كله للقيام بنزهة لمقرات Seats نائب السلطانة فى الجزيرة والجزيرة .

الحدائق ذات جمال فريد ، ببجاراتها ومحطات مياهها ونوافيرها واكشاكها ( ظلاتها الخشبية المعدة للراحة ) ومجازاتها المغطاة بالخضرة وطرقاتها الظليلة ، وروعة زروعها ، وكثرة زهورها التى تنثر عطرها على نحو لا يوجد الا فى مثل هذا المناخ . لقد أدت حرارة المناخ بالشرقيين الى أن يحيوا حياة بطالة ( حياة غير فعالة ) فنتج عن ذلك ذوق مصفى وعادات مترفة فصور مناظر وحكايات الشرق الخيالية ، يراها المرء هنا وقد تحولت الى واقع ملموس ، فالمرء يجد هنا كما يجد فى حكايات الشرق أن السعادة والمتعة هما الهدف الوحيد للحياة ، ولم يعد موجودا - أسوء الحظ - هنا

معرض الوحوش المشهور جدا - الذي أقامه آخر نائب للسلطان ، فلم نجد  
الا أقفاصا خاوية .

ولم يكن المنزل ( الذي أقمنا فيه ) يبعث على السرور كثيرا فقد كان  
المبنى واسعاً ليس له نمط مميز ، وإنما كان ذا طابع أوروبي تماماً لا يذكرنا  
بالشرق الا من خلال بعض الزينات العربية هنا وهناك . وكان يضم من  
الداخل كثيرا من السلالم والقاعات ، والأهم من ذلك أنه كان يضم ما لا يحصى  
من الغرف بدت غربية الطابع الا أنها جميعها مطلية بطلاء ذي لون فاقع  
وبدت جرداء . وذكرنا أننا في الشرق بعض الدواوين التي فرشت بشكل  
جميل وأشغال الرخام والكوات الصغيرة في الجدران وأواني الزهور والمياه  
الجارية والحمامات الجذابة .

وثمة أماكن كثيرة داخل القسامة وحولها تكاد تكون غير مأهولة  
بالسكان . وتحمل بعض الأميرات كبيرات السن حياتهن الرتيبة المملة  
في هذه القصور حتى النهاية ، ولأن صيانة هذه المباني تتكلف مبالغ  
طائلة فأنها تترك حتى يعثرها الخراب بالسرعة نفسها التي تم تشييدها  
وتزيينها فيها . فكما أقيمت بسرعة ، فإنها تخرب بسرعة ! .

وقد زرنا كل ركن في هذه الحدائق وتلك المنازل ، ومن ثم اتخذنا  
طريقنا الى أهرامات الجيزة .

كانت الحرارة شديدة وكانت الرياح تقذف برمال الصحراء الى  
أنوفنا وعيوننا ، لذا فقد سعدنا عندما انتهينا من قطع هذا الطريق الممل  
الطويل ، ووصلنا الى سفوح هذه المباني العملاقة .

### الصيد عند الهرم :

وكان هدفنا من زيارتنا للأهرامات للمرة الثانية هو اصطیاد  
حيوانات ابن آوى ، وتسلق هرم خوفو ، وبدأ بعض العرب فوراً في البحث  
( بين صخور ) هذه المباني الجليلة ولم يجدوا الا حيوانين من هذه الحيوانات  
( حيوان ابن آوى ) : قتل العوق الكبير واحداً منهما ، وأطلقت أنا النار  
على الآخر لكنهما كان بعيدين جداً ، فزحف الحيوان المصاب الى الصحراء .

ولم يكن ثمة أحد عند الهرم الثالث الصغير لذا فسرعان ما قررنا  
تسلقه ، وتحمل رفاقي المشاق فتسلقوه في عشرين دقيقة دون وقوع  
حوادث خطيرة ، ودرغت أن أعطى العرب الذين تراحموا حول السائحین  
وراحوا يرفعونهم خطوة خطوة - الفرصة لممارسة تدريباتهم الرشيقة  
فرحت أقفز من حجر الى حجر فوصلت الى قمة الهرم في سبع دقائق :

ون فوق صخرة مسطحة في أعلى الهرم يسكن للمرأة أن يشاهد منظرا  
جميلا لوادى النيل الأخضر والأرض الخصبة الممتدة لدائما تنظر الصحراء  
ذات اللون البرتقالى من الجانبين ، ومدينة القاهرة الجميلة ببيوتها المزخنة  
وماذنها السامقة .

كانت الشمس برزخ بالمسيب ، فبدا قرصها ككرة من ليل في غدا  
الجو الضبابى المصفر المقعم بالحرارة ، العاصر بذرات الرمال - واختفى  
قرصها في صحراء مصر الغربية ( الصحراء الليبية ) وهبطت في المساء على  
الجبال الشرقية وظهرت القلعة القديمة وجبال المقطم في ألوان وردية  
خفيفة كالوان جبال الألب عندنا .

وجرى بعض المرشدين العاملين عند الهرم - خاصة اليارعين منهم  
في الجرى - أملا في الحصول على بقشيش ، ليهبطوا - في ثمانى دقائق -  
قمة هرم خوفو - ويصعدوا قمة هرم خفرع ، مع أن الجزء العلوى من هذا  
الهرم الأخير خطر جدا ومن الصعب تسلقه فليس به درجات يسكن الصعود  
عليها .

وبعد استعراض المهارات هذا هبطنا من محطتنا الشاسخة هذه وفي  
الطريق أخبرنا مرشد شاب ذو ملامح جميلة وسحنة عربية أصيلة أنه  
ليس مصريا ، وليس واحدا من الفلاحين البؤساء وإنما هو يشرف بأنه  
يتحدر من سلالة جزائرية نبيلة ، وأنه كرجل رأى العالم لا يعرف تونس  
فحسب وإنما مراكش أيضا حيث يعيش العرب الحقيقيون لا البشر  
المخلطون البائسون الذين يعيشون في وادى النيل . وكان هذا الرجل  
الطيب يبدو مساخطا جدا على مواطنيه ( المصريين ) ونفس عن مشاعر  
السمخط هذه بوضوح عندما وجد أن حواراه شائق بالنسبة لى .

وعند سفوح الأهرامات كان علينا أن ننظر بإرتياب الى ما يفعله  
بعض البدو . لقد ركبوا ، ودابة أحدهم خلف دابة الآخر وانطلقوا بأقصى  
سرعة وأطلقوا النار من بنادقهم ولم يكن هؤلاء الرجال ولا خيولهم  
ولا ملابسهم ولا بنادقهم في هيئة يمكن وصفها بأنها جميلة أم أصيلة ،  
فحيثما يذهب المرء يجد ابتزازا وخداعا تحت شعار ما يسمى بالعروض  
الوطنية ، وتعتبر الأهرامات هي محط أنظار السائحين ، وينتهز البدو  
فرصة ذلك فيمارسون خداعهم الغبى . انهم ينتمون الى نفس الفئة التى  
تنتمى اليها الطبساء المجتررة التى تجلسها مفرورة متشنجة فى غابات  
سويسرا .

لقد زحف المساء وكان علينا أن نكر عائدين الى مقر اقامتنا بسرعة  
سالكين الطريق نفسه الذى آتيناه منه ، كما كان علينا - أثناء العودة -

أن نمر بشوارع المدينة التي كانت في هذه الساعة مفعمة بالحركة والنشاط ، ولما انتهينا من تناول وجبتنا اتجهنا للسكة الحديدية لنتجه الى المنزلة .

### الرحلة الى المنزلة :

وتجمع بعض الرجال في محطة القاهرة لوداعنا ، وكان من بينهم صديقنا برجس باشا . وكان البارون ساورما حاضرا وجاهزا ليصحبنا الى بحيرة المنزلة . وفي غضون دقائق أخبرنا هر زمرمان Zimmerman رفيقنا المخلص في كل رحلة قطار أن الوقت قد حان لتبدأ رحلتنا .

لقد تحدثنا كثيرا خلال الساعة الأولى في القطار ثم شرع كل واحد منا ينسل طلبا للراحة ، وحتى لا يكون هناك سبب لقطع نومنا ، سمع لحافلتنا بالتوقف في محطة دمياط التي وصلناها ليلا . ولما استيقظنا مبكرا في صباح اليوم السابع عشر من شهر مارس وجدنا عريتنا وحيدة على جانب المحطة .

وبمجرد أن تجمع رفاق الرحلة هبطنا على شاطئ التربة ( ٩ ) وحملنا زورق بخاري للناحية الأخرى .

### دمياط :

لقد سرتني دمياط كثيرا . انها عربية أصيلة وحتى المناطق التي تحد التربة Canal ذكرتني فجأة بالموانئ الهولندية والبلجيكية . ويدت دمياط مثل أنتورب Antwerp وقد نقلت الى بلاد العرب بفضل السفن الصغيرة التي راحت تبهر قادمة أو مغادرة بأعلامها وصواربها الجميلة .

وذهبنا سيرا على الأقدام من الرصيف الى منزل ممثلنا القنصل وهو رجل عجوز مضحك ومهمل . انه — بالضبط — مثلنا .

وداخل دمياط ذو طابع شرقي واضح فشوارعها — اذا أمكن تسميتها بهذا الاسم — أشد قذارة وأكثر ضيقا ، وأكثر تزيينا بالزوايا والسلالم الخشبية ، من معظم المدن العربية . وحيث تختفي المياه الجارية بعيدا عن المنازل ، تختفي الروح الهولندية التي تميز مدينة دمياط .

وعلى أية حال ، ففي دمياط يهب هواء ذو طابع شمالي ( أوروبي ) ( ان كانت كلمة شمالي هذه مناسبة لأفريقيا ) أكثر مما يحدث في أحياء القاهرة العربية أو مدن صعيد مصر . وفي بعض الأحيان يحس المرء بالبرودة هنا كما أن وجود البحر يجعلنا نحسن بالترطوبة .



والمنازل هنا غير مزدحمة ( أكثر تفردا وانعزالا ) أسقفها جيدة ،  
وبتعبير آخر فأنها قد شيدت لثمكت فترة أطول .

وفي منزل ممثلنا وجدنا كل شيء منظما جميلا - غرف أوروبية  
مفروشة بسجاجيد تركية ، وخدم عرب ، ورائحة الشرق ، وعطر الزهور  
ذو الرائحة النفاذة ينتشر في كل أرجاء المنزل . وفي كل شيء يمكنك أن  
تلمح أن صاحب المنزل شرقي أصيل .

### الى بحيرة المنزلة :

وبعد أن تناولنا افطارنا على عجل ( وكانت أمتعتنا في هذه الأثناء  
توضع فوق ظهور الخيول ) بدأنا رحلتنا من جديد . وامتطى بعضنا حميرا  
وركب اثنان من جماعتنا حنطورا ( عربة قديمة الطراز ) ، وفي غضون  
دقائق قليلة تحركت قافلتنا الصغيرة ينظم مسيرتها صيحات الحمارة  
( بتشديد الميم ) ، وسار موكبنا في بعض الشوارع حتى وصلنا الى طريق  
جيدة تحفها البساتين والمنازل الريفية وبعض غابات النخيل غير الكثيفة ،  
على طول ترعة حتى وصلنا الى شاطئ البحيرة . ورأينا ثلاثة أكواخ بائسة  
للصيادين على الشاطئ الرمل ، وأمامنا امتدت البحيرة العريضة لا تحدها  
حدود وقد اعترت مياهها الدكنة ، وشواطئها سبخات وكتبان رملية ، وكان  
منظرها موحشا رتيبا ساكنا سكون النوم .

وفي المنزلة لم أستطع - حقيقة - أن أقنع نفسي أنني لازلت في مصر .  
حيث بهاء الألوان وخصوبتها . ولم يكن الجو ملائما وكانت الرطوبة  
محسوسة ، والرياح الباردة غير المحببة أجبرتنا على ممارسة رياضتنا تحت  
السحب المطيرة الداكنة ، وكانت السماء عابسة تماما . لقد بدا كأننا  
عدنا للشمال ( لأوروبا ) مرة أخرى وتذكرنا بحسرة شمس أسوان التي  
لا تنسى . ان هذه البحيرة الكثيبة جديرة بأن تكون إحدى بخيرات سهول  
شمال أوروبا ، ورسبت السفينة ( الذهبية ) أمام أكواخ صائدي الأسماك .  
وفكرت أن قراصنة الماضي لم يكونوا يستخدمون قوارب أسوأ من تلك التي  
يستخدمها صيادو بحيرة المنزلة ، فقواربنا النمساوية الصغيرة تعتبر  
فرقاطات ( سفنا شراعية حربية ) اذا قورنت بها . وكان يتحتم علينا أن  
نختار لأنفسنا بعض هذه القوارب البائسة ، فاخترت أنا والدوق الكبير  
والبارون ساورما والقسيس المرافق لنا أكبرها ، وكل اثنين من رفاقنا  
استقلا قارباً ، وتبعنا قارب آخر يضم الأعلاف والطعام .

ويكفى أن أصف قارباً من هذه القوارب لينسحب وصفى عليها  
جميعاً . لقد كانت جميعاً بحالة سيئة ففي المقنعة مكان مرتفع يحيط بالمقل  
( الصاري ) وعلى هذه المقنعة المرتفعة مقاعه من خيزران ومنضدة صغيرة ،

وفى هذا المكان يمكننا قضاء النهار ، وهنا أيضا ينام الصيادان وطاقم القارب بالليل ، وإذا رفعت فتحة صغيرة فانك تكون قد فتحت خزانة صغيرة يمكن أن تخزن فيها الأمتعة ، وفى وسط القارب الى الأدنى من هذه المنطقة الامامية المرتفعة بخطوتين توجد كبينة ( قمرة ) صغيرة ذات نوافذ زجاجية ، وهذه الكبينة ( القمرة ) مقسمة الى قسمين - وفى الناحية الخارجية يوجد سريران ضيقان ولا شئ آخر . وفى الحقيقة فان المكان لا يتسع لشيء آخر ، وفى الجانب الآخر يوجد نوع من الخزائن يمكن للمرء بشئ من الحذق والمهارة أن يصعد فوقها لكنها منخفضة جدا لا تتيح للمرء أكثر من الاستلقاء فوقها وثمة حشيتان تملآن هذا المكان الضيق . وفى هذا المكان يتحتم على رجلين ضئيل حجمهما أن يناما جنباً الى جنب ، دون أن تعترض أطراف أحدهما أطراف الآخر . ودقة هذا القارب موجودة عند المؤخرة .

#### بقايا الهكسوس :

وكان طاقم السفينة كله من صيادى البحيرة يلبسون ملابس واسعة مبهجة ويضعون العائم فوق رؤوسهم ولم يكونوا على قدر كاف من النظافة وقد عبقوا المكان ( بزفارتهم ) . ولم يكن لأى منهم طبع العربى وسماته . فجلودهم بنية داكنة وجوههم عريضة وأنوفهم مسطحة flat ( فطساء ) وبنيتهم لها طابع رجولى ، ولكنهم ليسوا نحالا جدا ولا عصبيين كمعظم العرب ، ومن النظرة الأولى يمكن للمرء أن يحكم أنهم سلالة أجنبية ( غير عربية أو مصرية ) ، وفى الحق فان المناطق المحيطة ببحيرة المنزلة يقطنها سلالة الهكسوس القلاء وهم احدى القبائل الكوشية الذين هزموا الفراعنة زمن الأسرة الرابعة عشرة ، وقد احتفظ هؤلاء الهكسوس بجنسهم نقيسا ( غير مخطط ) . وكان علينا أن نكون فى قاربنا الصغير هذا بالقرب القريب من هؤلاء الناس . وكان هذا أمرا شائعا من الناحية العلمية ، لكنهم على المستوى الشخصى أناس لا يحب المرء أن يعيش معهم ان كان له مطلق الحرية فى الاختيار .

وقبل أن نبدأ مباشرة أتوا بطائر بجع أعشى لاستخضامه كشرى ، وكان - على أية حال ينقر بمنقاره هنا وهناك ، كما كان قنبرا جلد فاعنناه للشاطئ بعد وصوله بنقائى قليلة وتم ربط كل قارب كبير بأخر صغير ، وبدأت الرحلة : ان هؤلاء الناس يحركون أشراعتهم بمهارة فائقة ، وبمعاونة الرياح الغربية القوية انسابت سفننا بسرعة فوق سطح الماء . وتعد بحيرة المنزلة احدى أكبر البحيرات المالحة فى العالم ، وهى بحيرة هائلة لا يفصلها عن البحر ( المتوسط ) سوى شريط من كثبان رملية ، وعند شواطئها

الجنوبية والغربية السنة طويلة من مستنقعات وسبخات ، أما الى الشرق  
فنجد مخرجها عند حاجز داخلي لقناة السويس .

Findr its outlet at the inner dyke of the Suez Canal.

وإذا غادرت دمياط وجدت - الى الشمال - شريطا من كثبان رملية  
هضراء ووجدت الى الجنوب - لكن على مسافة بعيدة - مساحات خضراء ،  
ووجدت - الى الشرق - المنظر ممتدا حيث الماء واليابسة يختلطان كما هو  
الحال عند ساحل البحر . وفي البداية لم نر الا جزرا قليلة لكن مساحاتها  
كبيرة . وعمق البحيرة التي تبلغ مساحتها خمسا وأربعين ميلا مربعا  
- الآن - يزيد عن مفضل فخذ الرجل، وقاعها من طوى متماسك Stiff clay  
وأثناء العواصف - التي تبلغ درجة كبيرة من العنف أحيانا - لا يسكن أن  
يفرق المرء فيها اذ بإمكانه أن يقف ويسير على قدميه في كل أنحائها .

وفي شهور الشتاء تكون هذه البحيرة منطاة تماما - بمعنى الكلمة -  
بكل أنواع الطيور المهاجرة خاصة البط والأوز ، وفي النصف الثاني من  
شهر مارس لا يجد المرء الا الطيور المحلية وبعض أسراب طيور الشمال  
التي تأخرت في هجرتها . أما نسور البحر الضخمة التي تصل للبحيرة  
بأعداد كبيرة شتاء ، فلا تكون موجودة في شهر مارس باستثناء بعض  
النسور المنقطة قليلة العدد يمكن رؤيتها في بعض جزر البحيرة .

وقد وافقنا في البداية أن يتفرق جمعنا وأن تتخذ كل مجموعة  
الطريق الذي تريده شريطة أن تكون جميعا على مرأى من بعضنا وبعضنا  
الآخر وأن نلتقي ظهرا عند اشارة متفق عليها لتناول الغداء . وسرعان  
ما رأينا بعض البجع يسبح وفشلنا محاولتنا الاقتراب منه بقارب صغير ،  
كما هي العادة ، فواصلنا طريقنا بالدهبية .

وبعد فترة يسيرة دخلنا منطقة الجزر . ان وسط البحيرة ممتلئ  
تماما بالجزر المسطحة منها الكبير ومنها الصغير ، ومعظمها ذوات شواطئ  
رملية ، وفوقها أسراب من البجع بأعداد هائلة . أكبر من الجزر نفسها ،  
وكانت تتألق تحت أشعة الشمس بالوانها الحمراء التي تخللها بقع  
بيضاء .

واقتربنا ببطء وحذر من إحدى جماعات البجع هذه ، وبحشنا  
بمناظيرنا المقربة ( التلسكوبات ) بدقة ، فلم نر الا بجعا ، ولم نر بشروش  
( فلامنجو Flamingo ) واحدا ، وكان طائر البشروش هذا هو ما نود  
رؤيته .

وعندما كنا على مسافة لا تقل عن خمسمائة خطوة ، بدأت طيور  
البجع تضطرب فمدت أعناقها الطويلة وحركت أجنحتها وانطلقت أربع  
من بنادقها لتقدم لهذه الطيور التي اعترتها الدهشة - تحية الصباح . فعم  
بينها اضطراب شديد ، وضربت بأجنحتها بحوية وانطلقت محلقة فغطت  
الجزيرة البيضاء بسحابة هائلة سرعان ما ألقت بظلمتها على الماء . والآن  
بدأنا نطلق النار بشكل فردي ، ومن الغريب أن أقول أن هذا كان بدون  
نتيجة فقد كانت الطلقات تذهب هباء بسبب بعد المسافة كما أن هذه  
الطيور التي تبدو قريبة جدا ومكثفة يوجد بينها في الواقع مسافات . لم  
تسقط الا بجعة واحدة - عندما أطلقنا الوايل الأول - هوت ميتة طافية  
فوق سطح الماء وخاض أحد البحارة لاضرارها .

ولما توغلنا في الجزر زاد المنظر حيوية ، فقد كانت النوارس  
Sea-mews وطيور الخطاف Sea-Swallow والبط تسبح بين الجزر بأعداد  
كبيرة . وكان يسبح حول الجزر أيضا ( أبو ملقعة ) Spoon bills  
والغطاس divers وبعط صغير حجمه لم نستطع تمييزها من على البعد . وثمة  
طيور رمادية وأخرى فضية وطيور البلسون ( مالك الحزين ) وأسراب من  
طيور محلية من أنواع مختلفة في أسراب على الشواطئ الرملية ( للجزر ) ،  
ولم يكن لدينا الوازع القوى للتوقف في أية جزيرة فلم يكن وقت الظهيرة  
قد حل بعد أن تجمعت سفننا وكان كل من معنا في الدهبية قد استمتع  
بطعام افطار جيد تم اعداده في السفينة ( القارب ) المخصص لاعداد  
الطعام وحمل المؤن ، وظهرت أمامنا جزيرة أكبر مساحة مزدانة ببرج  
أبيض .

هذا قبر شيخ ( ولي ) يحظى بتوقير كبير في بحيرة المنزلة . وثمة  
أكواخ بائسة للصيادين الى جانب المبنى المهدم بقبته المستديرة ومشدته  
النحيلة التي تشبه المنارة ، ويفصل هذه الجزيرة عن جزيرة أخرى صغيرة  
ممر مائي ضيق . وقررنا أن نتوقف هنا لنمارس الصيد سيرا على الأقدام ،  
وقد اختفى طائر البلسون ( مالك الحزين ) بمختلف أنواعه عند أول  
محاولة منا للاقتراب ، ومن ناحية أخرى فقد وجدنا على شاطئ الجزيرة  
عددا من الطيور الأصغر حجما - أبو مجرفة avoset or Scooper  
وهو طائر ملفت للنظر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان نحيلتان ،  
ومنقاره مقوس لأعلى ، وطائر الراق ruff ( وهو طائر مائي تتميز ذكوره  
في فترة معينة بأطواق ريشية حول أعناقها ) وأربعة أنواع مختلفة  
أو خمسة من عائلة طيور الشاطئ .

وتفرقت كل مجموعة منا في اتجاه وسرعان ما دوت الطلقات مرجة  
وفي أقل من نصف الساعة كنا قد أطلقنا طلقاتنا في كل أنحاء الجزيرة .

## جزر المتزلة :

والجزر نفسها لا تستحق الا كلمات قليلة لوصفها فلها جميعا التكوين نفسه . فجميعها ضيقة وطويلة ، وجميعها تغطيها القواقع والأصداف ، وكل سطوحها تكسوها أشجار الطرناء Tamarisk داكنة الخضرة ، وشواطئها الجزر رملية ومستوية ، وفي بعض المناطق يجد المرء طميا ( طينا ) على سطوحها ، وريش الطيور متناثر في كل مكان - زغب البجع كبير الحجم ، وزغب البشروس الوردى ، وزغب أنواع أخرى مختلفة من طيور الماء .

وبعض الجزر - خاصة تلك التي تحيطها شواطئ رملية واسعة تبدو مغطاة تماما بطبقة من زرق ( بفتح الزاى والراء ) الطيور ويمكن للمرء أن يرى على الطين آثار أقدام كل أنواع طيور الماء وطيور المستنقعات والسبخات ، وفي مكان واحد رأيت أيضا آثار أقدام نمس ، ثم تابعنا رحلتنا شرقا بعد أن مارسنا رياضة الصيد لوقت يسير لكنه مثير .

وقد رغبنا هذا اليوم أن نواصل الرحلة حتى نصل لمنطقة طائر البشروس ( الفلامنجو ) ، وفي الحقيقة فأننا سرعان ما رأينا بين الجزر - الشاطئ الوردى الطويل لهذا الطائر الفريد . كان المنظر بهيجا . وكان علينا أن نعبر لسانا ضيقا من اليابسة ، لذا فقد أوقفنا الدهبية ، وحشنا رفاقنا الآخرين - نظرا لانقضاء فترة كافية على منتصف النهار - أن ينتشروا بين الجزر وأن نلتقى في هذه البقعة لقضاء الليل .

وتم سحب قاربنا الصغير عبر الجزيرة لقرب أسراب البشروس من الشاطئ المقابل ، ولما أصبحنا على بعد حوالى أربعمئة خطوة منها بدأت تتمايل وتتحرك بينما كانت قبل اقترابنا واقفة بلا حراك . وأهدينا لها أول وأبل من الطاقات ، فعلتنا سحابة وردية رائعة وابتعدت عنا مخلقة وراءها طائرا واحدا لا يكاد يقوى على الوقوف ولا يكاد يقوى على السباحة ، ورأينا من خلال التماسكوب أن الطائر جريح فسعدنا وجدفنا لنصل اليه فلما اقتربنا منه بدأ يضرب بجناحيه وطار فوق الماء بارتفاع منخفض واختفى عن أنظارنا خلف الجزر .

وواصلنا رحلتنا وقد حاققت بنا خيبة الأمل الى جزيرة طويلة ذات شاطئ رملي أبيض ، ومرسنا شيئا من رياضة الصيد ونحن في سبيلنا إليها . كان هدفنا الآن هو البحث عن أماكن مناسبة لنتخذها مراكز لاصياد طيور الماء التي بدأت بالفعل تتجمع شيئا فشيئا .

ولسوء الحظ فإن هذه الجزيرة الملائمة جدا كانت - بالفعل - مشغولة فقد كان صائد طيور عجوز رث الثياب جالسا في كوخ بناء من

فروع صغيرة ، والى جواره ابنه ، وهو ولد صغير غطاء الذباب واليعوض وكل ما يمكن وصفه من هوام . وكان هذا الصياد قد ربط نفسه بحبل متصل ببعض الشباك الكبيرة القريبة من الشاطئ .

وربط الرفاق بجمعة بائسة عمياء تدعو للأسى الى عصا - لتكون شركا تهوى اليه الطيور الأخرى ، بالإضافة لحوالى عشرة أو اثني عشر طائرا من طيور الغاق العمياء . لقد بدت لنا الجزيرة أكثر الموضح ملاعة فقد كانت أرضها مغطاة بالأسماك المتعفنة وزرق ( يفتح الزاي والراء ) الطيور والريش ، ومن الصعب أن يبقى أوربي في مثل هذا المكان طويلا . وبدأ صائده الطيور العجوز غير سعيدة بالمرة بزيارتنا للجزيرة وراح يتمتم بكلمات تنم عن التذمر أخذت طريقها الى لحيتته الكثنة المهوشة . ولم نضايقه طويلا وانما جددنا بسرعة الى جزيرة أخرى طويلة وضيقة في مواجهة جزيرته . وعند وصولنا خصصنا لكل منا موضعاً . وكانت الشجيرات الكثيفة فيها خير غطاء لنا وسرعان ما حل الصمت والسكرن في الجزيرة ، فأقبلت أسراب الطيور من غاق وطيور ( أبو ملهقة ) وبعض طيور البشروس وطيور مزرة البطائح moor-buzzards وبعض طيور الشواطئ الصغيرة من مختلف الأنواع ، لكنها كانت بعيدة فلم نحقق نجاحاً . بل ان طيور البشروس ، فرادى أو جماعات : كل جماعة مكونة من عشرة طيور أو نحوها ، كانت تحلق هنا وهناك لكننا لم نتمكن من اصابة أى منها ، ولم تظهر الأسراب الضخمة حتى بعد الغروب . وكان أكثر أهدافنا مدعاة للسخرية هي اصطيد البشروس وهو طائر ، فقد كانت رقبته الطويلة ورجلاه الطويلتان اللتان تحملانه أفقياً تجعلانه يبدو كعصا طويلة علق بها جناحان .

واشتدت الرياح مساء وراحت الأمواج تضرب الشاطئ بشدة وانقشعت السحب شيئاً ما فاستمتعنا بمنظر الشمس الجميل عند الغروب . كانت السماء من ناحية الغرب أرجوانية ، انعكست ألوانها على البحيرة وراح قرص الشمس يتوارى ببطء وراء الأمواج المرتجفة .

وانطلقنا لسفينتنا بمجرد حلول الظلمة ، وكان علينا أن نخوض الى الركبة بين الشجيرات الكثيفة لهذه الجزيرة الطويلة قبل أن نصل الى قاربنا الى الغرب منها .

وبعد عبور قصير وصلنا لجزيرة ضيقة قريبة من الشاطئ حيث ربطت دهبيننا بشدة . وكان كل رفاقنا موجودين هناك وقد أحضر كل واحد منهم بعض الصيد ، لكن أحداً منهم لم يكن صيده وفيراً ، ولم يكن

من بين صيد أحدهم بشروس واحد رغم الطلقات العديدة التي أطلقوها على هذا الطائر الحذر من مسافات بعيدة .

كان المساء باردا شبيثا ما ، وكان علينا أن نتناول عشاءنا في الدهبية ونحن متدثرون في معطفنا . وكانت بعض الفوانيس تضيء المنظر الغريب : سفن قليل عددها بجانب جزيرة صغيرة في ليل حالك في بحيرة لا حياة فيها بعيدة عن العمران . ولم يكن يقطع السكون المطبق سوى صوت الأمواج وأصوات العرب الغليظة .

وسرعان ما مات الحوار على شفاها ، وراح العرب والأوروبيون في سبات ، وعزفت سيمفونية من غطيط النائمين . ولن أنسى أبدا هذه الليلة التي قضيتها في هذه الخلية الضيقة . لقد سقطنا ضحية لجيوش من الهرام ، وراحت البراغيث تلتهم أجسادنا البائسة .

وفي الثامن عشر من الشهر غادرتنا دهبيتنا ولا زالت الظلمة حالكة لنتنشر مرة أخرى في الجزيرة منتظرين مرور الطيور صباحا . وجددنا بنفسى الى جزيرة ضيقة ، وزحفنا في سدفة القجر صوب مجموعة صغيرة من طيور البشروس وفشلنا في اصطياد واحد منها عندما أطلقت النار عليها من بعد ، فاختبأت بين الشجيرات ، ومرت أمامى طيور مختلف أنواعها فاصطدت ووضعنا في حقيبتى أنواعا مختلفة منها ، وكان من بينها طائر بلشون ( مالك الحزين ) كبير حجمه ، وشكل طائر البشروس ( الفلامنجو ) سحابة حمراء تضم آلافا من هذه الطيور تتخذ مختلف الاتجاهات ، لكنها كانت أبعد من أن تصيدها بنفقتى .

وعندما انتهى الوقت المحدد تجمعنا مرة أخرى في القوارب ، لقد كان هذا النهار عابسا لا يدعو للسرة فالسما يغطيها سحب كثيف ، ورياح باردة تأتيها عابرة مياه البحيرة ، وزخات المطر تبللنا بشكل دورى . ولأن الرياح وجهتنا الى الجانب الجنوبي من البحيرة فقد رأينا - بين الحين والآخر أسرابا ضخمة من البجع والبشروس ( الفلامنجو ) على الشواطئ الرملية فاتجهنا بالقارب الى واحدة من هذه المجموعات ، وفي هذه الأثناء عبرت الجزيرة سحابة - غطت الجزيرة - من طيور النورس وطيور ( أبو ملعقة ) ، ووجهنا طلقاتنا من مختلف الاتجاهات لطائر البشروس ( الفلامنجو ) مرة أخرى دون نتيجة . فهبت الطيور مشكلة سحابة هائلة لتستقر على مسافة بعيدة منا .

وتوقفنا عند إحدى الجزر الصغيرة لنتناول افطارنا عند الشاطئ ، ولأن العواصف كانت لا تزال تهب بل وتزداد ، فقد عقدنا اجتماعا وطرحنا خططا أولها أن نعود الى دمياط لكن العرب أعلنوا أنه مادامت

الرياح تهب على هذا النحو فانهم لابد ان يجلسوا وان يسحبوا قواربنا ،  
وهو عمل شاق وممل .

وكننا قد وصلنا بالفعل الى وسط البحيرة وأصبح في امكاننا أن نرى  
بالعين المجردة صوب الجنوب — على مسافة بعيدة — مآذن مدينة المنزلة  
الصغيرة ونخيلها .

ونصحنا البحارة أن نلقى برناجينا وأن نتجه الى بور سعيد وكان  
هذا تغييرا مهما في خطة رحلتنا لكنه بنا هو الحل الوحيد المعقول خاصة  
ان مسئول القيادة الأول وعد أنه يصل بورسعيد مبحرا بأقصى سرعة هذا  
المساء مستفيدا من الرياح الغربية السائدة .

وأشفعنا القول بالعمل فانطلقت الذهبية الخفيفة بين الجزر لا تلوى  
على شيء ، واتضح أن الأجزاء الشرقية من البحيرة أغنى بالطيور من الأجزاء  
الغربية ، فقد رأينا أعدادا كبيرة من طيور أبو مجرفة Shovel-birés  
وأنواعا كثيرة من البط وأسرابا من النوارس وطيور الغاق . وأطلقنا النار  
— بنجاح — على مجموعة من البجع وأخذنا منها نماذج باهرة الى دهبيتنا .

وبعد الظهر ظهرت في الأفق منازل بورسعيد البيضاء ، ورأينا  
— على البعد — بعض أسراب البشروس واقفة ، بينما تحرك بعضها بعيدا .  
وصفت السماء ، قنعمنا بشمس داقتة واستمتعنا — مرة أخرى — بمنظر  
الغروب المدهش الجميل .

#### بورسعيد :

لقد كان طاقم الذهبية ماهرا . انهم رفاق ممتازون ومجدون بشكل  
غير عادي توثقت صلتى بهم تماما خلال اليومين . وقبل أن يختفى شفق  
الغروب كنا نستطيع تمييز منازل مدينة بورسعيد والطريق العالي ( جسر )  
لقناة السويس ، ووصلنا لهدفنا قبل حلول الظلام .

لم يكن يفصلنا عن الشاطئ إلا مئات قليلة من الياردات لكن الماء  
كان ضحلا ، لذلك كان لابد أن يحملنا العرب الشجعان المرافقون لنا  
لشاطئ القناة . يحملوننا نحن أنفسنا لا امتعتنا فقط .

وكننا قد أرسلنا مراسل ( مشهل ) Swiftist الذهبية ليسبقنا  
حاملا خطابا ، لذا فقد كان في انتظارنا — بالفعل — سفينة بخارية على  
شاطئ القناة . وكان في انتظارنا قنصلنا وقبطان الميناء وهو دماشى بالملاد  
( يعود في الأصل الى دماشيا ) . ورأينا قناة السويس — للمرة الأولى ،



حيث تقع آسيا على شاطئها الآخر . والنظرة الأولى لقارة آسيا لا تنبئ عن جمال كثير ، فقد قلعت لنا آسيا نفسها في شكل جسر ( طريق مرتفع ) .

وأوصلتنا الباخرة بسرعة الى رصيف غير بعيد عن الفندق . ولم نر في الشوارع الا أوروبيين ، وكان كل شيء رأينا يعطى الميناء طابع الموانئ الانجليزية . وكان الفندق كبيرا ومشيدا على الطراز الحديث تماما ، ويحظى بصيانة جيدة ، وذكرني بسويسرا ، فليس به أية لمحة شرقية . وكنا نحن وأسرة انجليزية - نزلاء الفندق الوحيدين هذا المساء ، وحالما وصلنا قدموا لنا عشاء فاخرا وفي حوالي العاشرة كنا آمنين في أسرتنا .

وغادرتنا الباخرة في صباح اليوم التالي حيث توجهنا لباخرة قناة السويس ، وكان القبطان - وهو رجل عجوز مجرب - وكذلك كل طاقم الباخرة - من الفرنسيين ، وكقاعدة عامة فإن قناة السويس وكل ما يتعلق بها من حصة فرنسا ( ملك فرنسا ) .

وأمكننا أن نلقى نظرة من فوق شاطئ القناة على بحيرة المنزلة الى الغرب ، وعلى سهل القرم Pelusium الذي يمتد الى الشرق .

ان فكرة التحرك بين الكتلتين القاريتين ( آسيا وأفريقيا ) فكرة جذابة لكنها عند التطبيق قد تكون مملة . ووقفت آلاف مؤلفه من البجع والبشروس عند السبخات الجنوبية لبحيرة المنزلة ، فاطلقنا النار عليها عبر القناة ، ولم يكن لطلقنا تأثير سوى أنها طارت مكونة سحابة أكبر مما يتصوره العقل .

### البرود الانجليزي - ارتطام في القناة :

ولما انتهت بحيرة المنزلة عن أيامنا وجدنا أن الشاطئ الغربي للقناة مهجور وغير مأهول تماما . لقد حجبت الشواطئ المسالية كل المناظر ، وكانت أشغال الأتربة والرمال الناتجة عن الحفر تملأ الشاطئ : الأيمن والأيسر ولا تعتبر صورة جذابة بالنسبة لنا مع أنها - على أية حال - اشغال جيدة . وكان التغيير الوحيد هو اصططامنا بباخرة هندية انجليزية ضخمة اعترضت طريقنا بشكل أخرق وظن قبطاننا أنه يمكننا المرور فتقدم بجسارة فادى ذلك الى تصادم عنيف وحلوث بعض التلقيات البسيطة في جوانب سفينتنا ، فالتصقنا بالسفينة الانجليزية ، وعانينا لنصف ساعة حتى خلصنا سفينتنا منه . لقد أعطانا هذا القبطان الانجليزي اللفظ ظهره وكان الأمر - على الأقل - لا يعنيه وأخيرا تمكنتا من تحريك سفينتنا تحريكا خفيفا ، وحدث صرير من جراء الاحتكاك بين السفينتين المتصادمتين ، ثم اصططمتا مرة أخرى ، وتخلصت سفينتنا ،

بل اننا عملنا على دفع السفينة الانجليزية ، ثم واصلت سفينتنا وسفينته  
سيرهما في اتجاهين متضادين .

### شاطئ القناة الغربى :

وكنا نذهب بين الحين والآخر لنلقى نظرة من قمرة القبطان على  
شاطئ القناة الآسيوى نحر الصحراء العربية ( ليقصد صحراء سيناء ) .  
ان طبيعتها تختلف تماما عن الصحراء الليبية ( يقصد صحراء مصر  
الغربية ) . ان ألوانها غير داكنة ، ورمالها وجبالها غالبا بيضاء ، وكان  
بها عديد من الشجيرات الصغيرة المستديرة ذوات خضرة فاقع لونها .

### الإسماعيلية :

وبعد عشر ساعات وصلنا لبحيرة الإسماعيلية المالحة ومدينة  
الإسماعيلية أيضا - وهى مدينة ذات طابع أوربى تماما . ووجدنا أن  
الصحارى الصفراء التى اعترى صفرتها البياض والتى تحيط بالبحيرة  
مستوية تماما فى غالبيتها ، وترى على البعد - الى الجنوب - سلسلة جبال  
عناقة Ataka الجميلة . والمنطقة بلا شك رتيبة عابسة الا أن لون البحيرة  
المالحة الأزرق يتناقضه مع لون شواطئها الصحراوى قد خلق مزاجا لوفيا  
يستمرعى الانتباه .

وكانت لدينا فرصة - أثناء اتجاهنا لمحطة السكك الحديدية - أن  
نرى ما يشير اعجابنا بثروة الفرنسيين وصناعاتهم وذوقهم الراقى ، فقد  
نبحروا فى أن يقيموا فى الصحراء منتجعا بحريا للاستحمام ، ومساكن  
بيضاء نظيفة ذوات ستائر تمنع عنها الهوام Jalousies ، وشوارع  
جيدة ، وطرقات تحفها الأشجار وبساتين تلقى العناية . ولما بدأ قطارنا  
فى المسير تجاوزنا بعض السبخات الصغيرة ثم قطعنا الصحراء وهى هنا  
صحراء عربية خالصة Which is here Completely Arab . ووجدنا  
بعد ذلك بحيرة صغيرة يحفها الغاب ( البوص ) وإلى جوارها بعض الكباش  
البائسة ولما أصبحت التلال الرملية بجوار الخط الحديدى منخفضة بما فيه  
الكفاية رأينا الى الجنوب جبل عناقة الشامخ وبعده جبال آمون Ammon  
وهذه السلسلة هى نفسها التى يكون أنفها الغربى ( نتوءها الغربى )  
جبل المقطم المعروف .

وبعد فترة بدأت الصحراء تتراجع وأخيرا اختفت عن أنظارنا  
وأصبحنا مرة أخرى فى الأرض كثيفة الزروع لمصر الدنيا . فتجاوزنا  
مدينة الزقازيق وقرى مختلفة صغيرة وسرعان ما بدت لنواظرننا مدينة

الخلفاء الجميلة تتألق ذهبية في ضوء الشمس ، ولما وصلناها سلكتنا أقصر الطرق الى قصر النزهة ، وكنا في حاجة للراحة .

#### عُود الى هليوبولس ، وشجرة مريم :

وفي صباح اليوم التاسع والعشرين قررنا أن نمارس رياضة الصيد في هليوبولس . كان الجو ملائماً تماماً فالهواء نقي والجو دافئ . وبعد أن قطعنا الطريق السيئ نفسه الذي قطعناه عند شهر مضى وصلنا الى ( شجرة مريم ) وأطلقنا كلاب المشهند لتبحث عن الضباع والنموس في الحدائق الصغيرة وبين أشجار الصبار الكثيفة التي تشكل سياجا قريبا . لكننا سرعان ما اكتشفنا أن كل ذلك بدون جدوى لأن موسم طيور السماني ( القرى ) قد بدأ منذ فترة وسمعنا طلقات تأتي أصواتها من مختلف الاتجاهات ، فقد كان الشرقيون الباحثون عن المتعة يوم الأحد ، وكانوا من أصول شرق أوربية من مختلف الطبقات - يفتشون الشجيرات والحقول. لذا فقد بدا أمرا غير مجد أن نطلب اخلاء الأرض منهم .

#### مزرعة النعام :

وثمة مطعم صغير بالقرب من شجرة مريم بين الحدائق والأشجار الظليلة - وهو مكان أثير لدى أهل القاهرة - وقد تناولنا افطارنا هنا ( في هذا المطعم ) ثم ذهبنا بين الحقول والحدائق لنصل الى مزرعة النعام التي تقع على حافة الصحراء ويعمل بها جماعة يبدو أنها أنجزت عملا جيدا فقد كان كل شيء فيها مرتباً بطريقة مريحة وكان مدير المزرعة رجلا سويسريا ألمانيا جعلنا نرى الأماكن المخصصة لهذه الطيور - مساحات رملية مفتوحة، ومباني داخلية والفتحات الصغيرة، وكل الطيور ( النعام ) هنا من النوع الفخم ، بعضها صغير وبعضها كبير ، والنعام هنا من نوعين ( صنفين ) مختلفين وبدأت هذه الطيور كلها في الغاية من الجمال بريشها الجميل .

وبعد أن رأينا كل شيء في مزرعة النعام هذه سلكتنا أقصر الطرق الى حدائق البرتقال المشهورة في هليوبولس ورأينا بعض آثار الدثاب لكنها لم تكن في جحورها في هذا الموسم ، وعبثا بحثنا بين أشجار حديقة البرتقال الجميلة وفي أرضها ، فلم نجد ذئبا واحدا ، وفي طريقنا توقفنا عدة مرات وبحثنا دون جدوى بين أشجار حدائق مختلفة ، كما بحثنا في حقل من حقول قصب السكر لكن ديانا Diana لم تتعطف علينا هذا اليوم فعندنا للقاهرة بحقائب خاوية .

## الحمام التركي :

ولما وصلنا لمقر اقامتنا دلفنا الى حمام تركي منعش غاية الانعاش ، ويجب على المرء أن يكون قد خاض هذه التجربة ( الحمام التركي ) في الشرق ، فهي تستغرق بمختلف مراحلها بما في ذلك التدليك - ساعة ، وذلك حتى يفهم مدى عشق الشرقيين لهذا الحمام وكل ما يتعلق به ، وتخدم الحمامات التركية يشككون طبقة ( فئة ) خاصة يمارسون عملهم بدقة لا مفر منها ، وتجد هذه الحمامات في بيوت الاثرياء الشرقيين ، وهي تجلب سرورا بالغا وسعادة لا يمكن وصفها .

## القلعة ومسجد محمد علي :

وفي ٢١ مارس اتجهنا صباحا الى قلعة القاهرة الشهيرة ومررنا بعدة بوابات على جسانب منحدر تلي . واستقبلنا الخفراء بعزف الموسيقى العسكرية .

والقلعة مبنی ضخمة محصنة تحصينا فائقا من جهة المدينة ( القاهرة ) بصخور محلية . وبعد أن تحطمت هذه القلعة سنة ١٨٢٣ تم انشاء مبنی حديث في البقعة نفسها ليحل تماما محل قلعة صلاح الدين التي أنشئت ١١٦٦ والتي أقيمت من أحجار آثار مصر القديمة . وبعد أن مررنا عبر البوابة الأولى ( الباب الجديد ) واجتازنا مجازا أدى بنا الى البوابة الثانية ( الباب الوسطاني ) وقعت أنظارنا على ميدان مربع ثان تحيط به المباني الحكومية والعسكرية وقصر صغير لنائب الخديو .

## المآذن - شعار القاهرة :

وأكثر أهداف السائح أهمية وأكثرها مدعاة للتشويق في هذه البقعة هو مسجد محمد علي الضخم المشيد من الألباستر ( المرمر ) الذي يشمخ وسط القلعة . وقد أنشأه مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية ، الذي حظى بشهرة كبيرة - انه الشجاع محمد علي ، وقد أنشأه في موضع كان به قصر قديم خرب . ويرى المرء من هنا على البعد مآذن القاهرة السامقة تشمخ عالية . ان هذه المآذن هي شعار القاهرة an emblem of Cairo . ودخلنا مبنی المسجد المهيبة بعد أن وضعنا نعالنا في أخفاف ( جمع خف ) كانت معدة لهذا الغرض ، ويؤثر في المرء - للوهلة الأولى - مساحة المسجد المربع ، والقبة المهيبة وما حولها من قباب أخرى صغيرة ، والجدران المكسوة بمرمر ( الألباستر ) بنى سريفا الأصفر ، لكن عند التدقيق يكتشف المرء أن التفاصيل المعمارية أدنى في مستواها من التفاصيل المعمارية في المساجد

القديمة ، والنوافير هنا رغم ثقلها الا أنها خالية من الجمال ، وقد فرش  
المسجد ببعض السجاجيد الجميلة ، كما أن المحراب الذي يشير الى اتجاه  
مكة ( المكرمة ) مزخرف بشكل جيد ، ويقع قبر محمد على الى جانب هذه  
البقعة المقدسة عند المسلمين ( يقصد القبلة ) (\*) . والقبر مغطى  
بستائر ذوات أشغال ذهبية ومحاط بشبك حديدى وشاهد قبره على هيئة  
عمامة حجرية - كما تقتضى تعاليم الدين الاسلامى (\*\*).

### شخصية محمد على :

وسمح لنا باجتياز الشبك الذى يشكل سورا حول القبر لننظر الى  
الضريح الذى يضم رفات الرجل العظيم . ابن أحد كناسى قولة ، الجندى  
الكامل والشرقى الكامل ذو الروح الاستقلالية المتمردة Wild & undisciplined  
ذو الطاقة الحديدية ، والمتسم بالقسوة فوق كل هذا ، والذى  
وهب - بالإضافة لذلك - مواهب عظيمة وذكاء - كان يسعى لتكوين  
امبراطورية على نسق الخلافة ( الاسلامية ) الأولى . لقد سار عبر  
فلسطين على رأس جيشه الباسل ، واضعا الاسكندر الأكبر كمثال له .  
ولو أن القوى الأوروبية لم تتدخل لاستطاع الباشا الثائر - بلا شك -  
أن يصل اسطنبول ليحاصر الخليفة . لكن التدخل الأوروبى أجبره على  
الاكتفاء بمصر وتوجيه كل عنايته وطاقاته لها .

والقلعة التى بنىها محمد على هى آخر انواره الدالة على قسوته  
الوحشية . وكان محمد على لا يثق فى المماليك الذين كانوا يخدمون فى  
مصر كمجموعة مرتزقة مخلصين للسلطان faithful to Sultan .

### عذبة المماليك ، والمملوك الهارب :

وانتهز محمد على فرصة تجمع المماليك فى ساحة القلعة الى جوار  
المسجد وأمر باغتيالهم جميعا ما عدا مملوكا واحدا كان تركيا  
شجاعا قفز وعليه كل دروعه بحصانه الجسور فوق الجدار الذى يشكل  
حدود الساحة واندفع الى منحدر شديد وهبط الى أكوام ناعمة من النفايات

---

(\*) قبر محمد على ليس الى جوار القبلة فى المسجد ، ولعل هناك خللا فى التعبير ،  
قبر محمد على يكون الى الخلف من المصلين وليس أمامهم كما هو مشاهد حتى الآن -  
( المترجم ) .

(\*\*) هذا من العادات وليس له أية علاقة بالفكر الاسلامى وليس هناك أى نص  
غيبى ( قرآن كريم أو حديث نبوى ) يعرض ذلك - ( المترجم ) .

أسفل القلعة ، واستطاع هذا المقاتل أن ينهض بجواده المخلص وكأنما نجا بمعجزة وهرب من ملاحقة الباشا الساخط .

ولقد رأينا آثار دماء هذه المذبحة على الأرض وألقينا نظرة من هذا المكان المرتفع على مدينة الخلفاء العريقة . كان منظرها رائعا بمنازلها ومآذنها ، وعلى البعد رأينا الأرض الزراعية يتخللها النيل كخيوط من الفضة . وخلف الأرض الخضراء يلمح الهرم . وخلف كل ذلك صحراء صفراء لا تحدها حدود ، وخلفنا وإلى الأبدى منا مباشرة منحدرات جبال المقطم الداكنة ومقابر الخلفاء والماليك التي تشملها القوضى وعدم النظام وبقايا أثرية للمدينة القديمة التي اعتراها الحراب - كل ذلك يقدم للرائي صورة شائقة .

وقد ألحق بساحة القلعة مقر Castle صغير لنائب الخديو ، وهو مقر مرتب ببساطة ليس فيه ما يلفت النظر إلا أنه كان ذات يوم مقرا لحداد على . وقد تركت غرفته وحمامه على الحالة نفسها التي كانت عليها عندما كان هو على قيد الحياة . ويحسن المصريون صنعا بتوقيع ذكرى هذا الرجل الجدير بالاحترام ، لأنه قد ترك أثرا قويا في بلادهم وإذا تابعت ذريته جهوده وورثت عنه ذكاه وطاقاته فإن مصر ستلعب دورا أعظم من دورها الحالي .

### بئر يوسف :

وقد أرونا في ركن خارج طريق ( ممر ) في القلعة ما يسمى ببئر يوسف ، وقد أمر بحفره صلاح الدين يوسف ، وغالبا ما يخلط الناس بينه وبين يوسف المصري وتدير الجواميس ساقية ترفع الماء من هذا المستودع المائي القديم والبسيط (١) .

أما وقد أكملنا جولتنا في القلعة فقد استأذنا من السلطات المدنية والعسكرية ومن دراويش المسجد وهبطنا التل إلى المدينة .

### الكتبخانة الخديوية :

وتشغل مكتبة الخديو الشهيرة ذات الرصيد الكبير مبنى كبيرا وملائما في أحد الشوارع القديمة . ومدير هذه المؤسسة المائي وقد استخدم خبرته وتدريبه العلمي في ترتيب المجموعات الثرية التي كانت قبل ذلك هملًا بغير نظام . ومن الطبيعي أن تثير المجموعة الشرقية من هذه الكتب والمواد اهتمام الغرباء وقد وجدنا نسخا من القرآن ( الكريم ) بكل لغات المسلمين في آسيا ، كما وجدنا نسخا من القرآن ( الكريم ) تعود

لبواكير التاريخ الاسلامى معروضة بأسلوب فريد جميل . لقد أمر الخديو ومن سبقوه بجمع الكتب الدينية القيمة من المساجد وايداعها هذه المكتبة للحفاظ عليها من التلف . وقد رأينا فى هذه المكتبة ايضا بعض الكتب الفارسية ذوات خطوط ورسوم جميلة . لقد ذكرتنى الأشكال الخارجية والأساليب ، والأزياء وعدة الفرسان وأسلحتهم بكثير من الأعمال الفنية فى العصور الوسطى الغربية . وبالإضافة لنسخ القرآن ( الكريم ) رأينا مجلدات توضح بالكلمة والرسم الحروب والمعارك والقنص بل وحتى المناظر الطبيعية ، وكثير من هذه المناظر الفارسية ذوات قيمة بالإضافة لقيمتها التاريخية .

وبعد أن ألقينا نظرة خلال المكتبة بقدر ما سمح به وقتنا المحدود ، واصلنا تحركنا - راكبين - فمررنا خلال زحام المدينة العربية ، وأسرعنا نقطع بعض الشوارع الأوربية حتى وصلنا - سريعا - الى ميدان قصر الخديو الكبير .

وفى مواجهة القصر والشكنات يوجد مبنى جديد لمدرسة College . يولى الخديو الحالى اهتماما فائقا بها فهو الذى أمر بإنشائها ، وطلب منا زيارتها ، وقد جلنا فى فصولها حيث كان الدارسون يتلقون دروسهم على أيدي معلمين أوربيين . وكان معظمهم من أولاد أثرياء القاهرة المسلمين . وإن كان من بينهم صبيان من أبناء الخديو - وكان الأطفال يبدون بمنظر حسن وصحة جيدة ويتسمون بالحيوية ، وقد رأينا قاعات المعيشة والمطاعم والملاعب ، وكانت المدرسة منظمة على النسق الأوربي وإن كان هناك بذخ فى تجهيزاتها وأثاثها مما لا يتمشى مع الغرض منها كمؤسسة تعليمية .

ثم زرنا بعد ذلك القنصلين العامين : البارون شافر Schaffer والبارون ساورما Saurma فى منزليهما الجذابين ثم تدنا بعد ذلك للحى العربى . وتوقفنا عند شارع ضيق لا تستطيع حافلتنا المرور به وترجلنا حتى باب فندق النيل الممتاز الذى يقع فى وسط المدينة القديمة ، وهو فندق جميل وتحولت باحته الى حديقة جميلة أضافت الى جماله جمالا ، وصاحب الفندق نمساوى ، ومن هنا فقد قابلتنا مجموعات مختلفة من بلادنا وعبد القادر وبرجش باشا والبارون ساورما ، وتناولنا جميعا افطارا ممتازا تحت سقيفة جميلة .

### الحاوى :

وقضينا بعض الساعات الباعثة على السرور فى هذا الفندق اذ أمتعنا ( حاوى ) عربى ببعض الألعاب ( السحرية ) التى تتطلب مهارة كبيرة . وكان مساعده صبى صغير يقول - بألمانية مهشمة - قبل كل

لعبة ( سحرية ) : « تعال هنا يا عفريت » ، وعقب هذه الألعاب ( السحرية ) جاء دور ( حاوى الأفاعى ) الذى أحضر معه أفاعى ضخاما جدا ، وسحالي مختلفة ( من بينها سحرية جيكو Utko الرمادية ) وعقارب غريبة ، وقد أخرجها جميعا ( الأفاعى والسحالي والعقارب ) من تحت معطفه الواسع . ثم أتى رجل ومعه قرود سميكة مدرجة جيدة ، وعنز وكلاب مختلفة . وبشكل عام فإن ما رأيناه شائع فى كل شرق فى أوربا ، لكن البشارة الداكنة للحاوى العربى وثوبه الواسع والمسلك الشرقى الوقور والآخر العام للمشاهد المرحه - كل ذلك قد أضفى الجاذبية على عروض - هى فى حد ذاتها - ميلة وطفولية .

وعند عودتنا لمقر اقامتنا ارتدينا ملابس الصيد ، وذهبت مع الدوق الكبير والبارون ساورما خلال شوارع المدينة وعبرنا جسرا على النيل بالقرب من المنازل الريفية للخدمى ، وتمركزنا فى أحد حقول القصب هناك ومعنا عنز راحت تنغو أخفيساها بين أعواد القصب الطويلة . يا خسارة ! لم يأت ذئب ولا أى حيوان غير مستأنس ، مع أن ساورما كان قد مارس الصيد بنجاح فى البقعة نفسها وبالطريقة نفسها ، لكن ديانا كانت غير عطوف معنا اليوم مرة أخرى ( لم يكن الحظ حليفنا ) ، فعندما لمقر اقامتنا عندما بدأ الظلام يزحف . لقد كان مساء رائعا ، غروب يهى أعقبه ليل الربيع الأفريقى العظيم . فراحت الحشرات تطن وتتنز ، وراحت الخفافيش تمر بسرعة حول الأشجار التى راحت ذؤاباتها تحف حفيفا رقيقا . سحر محيط من النجوم فى القبة السماوية الزرقاء ، وهدوء لا يقطع جلاله سوى تباح الكلاب الذى لا ينقطع وصباح طيور دجاجات الماء فى طريقها للنيل .

لقد كانت القاهرة تغص بالحياة ، وكان علينا أن نندفع لنشق طريقنا وسط الزحام والحركة حتى نصل الى قصر النزهة .

وذهبنا فى بكور صباح اليوم التالى الى ثكنات قصر النيل الكثيرة ، وواصلنا رحلتنا فوق ظهر الباخرة فيروز Feruz التى كانت راسية الى الأدنى من الثكنات . لقد ذكرتنا هذه الباخرة القديمة بسهولة الصعيد السعيدة ، وأيامنا الطيبة هناك . وقاد الأدميرال الداكن - مرة أخرى - سفينته الجيدة ، وما هى الا دقائق قليلة حتى تحركت سفينتنا شمالا .

### الى القناطر :

لقد تعلمنا منذ الوهلة الأولى أن هناك فرقا بين مناظر مصر العليا ، ومناظر الدلتا ، فمناظر الصعيد براء ألوانها وجمال طبيعتها تزداد قيمتها عندما يعود المرء الى القاهرة ومصر الدنيا ( الدلتا ) ، فما كان جذابا فى



الدلتا عندما رأيناها للمرة الأولى ، بدأ لنا - بالمقارنة بسناظر الصعيد شاحبا  
لا لون له .

لقد كانت رحلتنا هذا اليوم الى قناطر النيل الشهيرة « barrage du Nil »  
لقد تجاوزنا في البدايه منارل قديمه تهبط تدريجيا حتى  
الماء ، ثم توغلنا في المجرى الواسع للنيل فوجدنا يخوتا متنوعة للتخديو  
صفت جنبا الى جنب ، وبواخر يريد وعدجا كبيرا من التهييات ( البواخر  
السياحية والخاصة ) وعلى الشاطئ الغربى توجد بيوت ريفية تحيطها  
حدائق غناء ، وناحية اليمين ( الشاطئ الشرقى ) المدينة ، وضاحية شبرا  
وقلعة تحمل الاسم نفسه ( قلعة شبرا ) والأشجار الياسقة للمتنزّه الكبير .  
وسرعان ما اختفت هذه المشاهد الشائقة وبدأت المناطق الزراعية ذوات  
المنظر الرتيب فى مصر السفلى تحف النهر مستمرة استمرارا غير منقطع .

وقد رأينا مجموعة من الأوز البرى المرتجل وعددا كبير من البط  
أما سجاجات النهر فكانت عند الشاطئ لكن بأعداد قليلة ، وتجاوزت  
سفينتنا عددا من الجزر الرملية الطويلة ، وظهر أمام نواظرنا مبنى حاجز  
يشبه الجسر ( الكوبرى ) .

هنا يتفرع النيل الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد . اننا الآن  
عند النقطة الجنوبية للدلتا . واللسان الطينى الذى يفصل الفرعين وكذلك  
الفرعان ، قد مد عليها جميعا جسور ( كبارى ) حديدية وقناطر عملاقة  
أنشأها محمد على ، والهدف منها هو الاحتفاظ بمياه النهر أمامها أثناء فترة  
انخفاض المياه حتى يمكن امداد ترع اليجه البحرى كثيرة العدد بالمياه  
اللازمة أثناء التحاريق ( نقص المياه ) كما يتم امدادها أثناء الفيضان على  
سواء .

ويقال ان نتائج هذا المشروع - الذى عاق الملاحة فى النيل فى  
الوقت نفسه - لا تساوى المبالغ الطائلة التى أنفقت عليه . وثمة قلعة  
تكلفت أيضا مبالغ طائلة على اللسان بين السدود ، وهذه القلعة المهجورة  
منخفضة جدا فهي لا تزيد كثيرا عن كونها دمية وثمة عدد قليل من البنادق  
قديمة الطراز وتكنة بها حامية صغيرة ، على أن أكثر ما يلفت النظر فى  
هذا كله هو الصفوف الطويلة من الأشجار الياسقة التى تزين كل جوانب  
هذا المكان المهجور .

وكان علينا أن نتفقد المكان كله ودردنا حول القلعة ، وكذلك السدود  
( القناطر ) ، وبعد اتمام جهلتنا اتخذت باخرتنا طريق العودة . وترقنا  
عند جزيرة طويلة ضيقة تغطيها الرمال والشجيرات الكثيفة ، وبحسنا فيها

عن الطرائد • لقد أطلقت بنقيتي على بعض طيور الماء الصغيرة بالإضافة الى اصطيادى لصقر جميل ذى صدر شاحب • وثمة فرع ضحل من النهر يقسم الجزيرة ، وعبر هذه المخاضة تتجول قطعان كبيرة من الخراف والماعز لتتغذى على الشجيرات النابتة فيها • وقد وجدنا على ضفتي النيل أكواخا باعثة مختلفة تدت اقامتها لأغراض الصيد •

وسرعان ما تخلينا عن الصيد في هذه الجزيرة وعدنا لباخرتنا وتناولنا انطارنا في طريق عودتنا لقر اقامتنا ، وما كدنا ننتهي من تناول القهوة السوداء وتدخين السجائر حتى وصلنا لقصر النيل وودعنا السفينة فيروز الحبيبة وداعا أخيرا •

### الدراويش

وقد عرف عبد القادر باشا - باهتمامه الذي لا يفتقر - كم أنا مشوق لرؤية الدراويش وهم يرتقصون turning ويدسيحون howling فحصل من الخديو على أمر بالسماح لنا بدخول إحدى تكايا Convent هؤلاء المتعصبين ، خاصة أنه لم يكن هناك يوم جمعة ضمن أيام برنامجنا في القاهرة ( ففي يوم الجمعة يمارس هؤلاء الدراويش طقوسا خاصة في المساجد الكبرى ) • فركبنا مارين خلال المدينة كلها حتى وصلنا لأبعد جزء في الحي العربي • وتوقفت عربتنا عند حارة صغيرة وتسلقنا متحدرا حادا الى جدار ( سور ) ، وعندما دخلنا من البوابة وجدنا رواقا صغيرا معمدا مسقوفا وحديقة ، ووصلنا لغرفة الاستقبال بعد أن صعدنا سلما خشبيا يائسا وسرنا في ممر • كانت الجدران مستوية وجرداء ، ولم يكن بالغرفة سوى ثلاث كتبات وبعض الأبسطة ، وظهر شابان أظنهما من خدم ( التكية ) ، وفي غضون دقائق قليلة ظهر شيخ director التكية Convent - وهو رجل عجوز هذه التعبد بأسلوب معاقبة اللات - تكفيرا عن الخطيئة - والعمل على إماتة الشهوات • وكان مظهره الخارجى قبيحا حقا اذ كان نحىلا شاحبا بلون الشمع ، لقد كان كجثة ميت بلامحه الحادة وشفتيه الشاحبتين وعينييه الميتتين ويديه النحيلتين ذواتي العظام البارزة ، وحمله ( ظهره ) المنحني ، بالإضافة لصوته الأجوف - كل ذلك كان ذا طابع شبحى شاحب شحوب الموتى • أما ملابسه فثياب طويلة ملونة مزينة بالفراء ، وحزام لامع وعباءة طويلة تزحف خلفه فوق الأرض كان يضم أطرافها الإمامية الى بدنه بيديه المرتعشتين رغم حرارة الجو • ويضع فوق رأسه عمامة مرتفعة من لباد أخضر حولها شال أخضر - وهو اللون المفضل لدى النبي ( صلى الله عليه وسلم ) the Colour of the prophet • وهذه العمامة headdress العجيبة تشبه عمام الفرس •

وقد أشار إلينا - وفقا لما تقتضيه اللياقة - أن نجلس وجلس هو متيبسا على الكنية كأنه أحد تماثيل الشمع . وأحضر الخدم القهوة في فناجين قدرة وقدموا لنا السجائر .

وبعد مقابلة رسمية قصيرة دعانا لقاعة الحلقة ( القاعة المقدسة Sacred hall ) في المسجد التابع لاتباعه ( مريديه ) فدخلنا إلى مبنى غريب بعد أن مررنا بممر يحذاء البيت . لقد كان قبة دائرية عالية ذات حلبي معمارية شرقية ، وثمة ممر ضيق سقفه قائم على أعمدة خشبية تدور مدار الجدران . انه المكان الذي يتمركز فيه مشرف الحلقة faithful spectator والموسيقيون ( العازفون ) . وإلى الأدنى منا رأينا حلقة تشبه حلقة التدريب في مدارس تعليم الفروسية riding school ذات سياج يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ، وأرضية الحلقة مفروشة برمل ناعم كما في حلبة التدريب في مدارس تعليم الفروسية وثمة بساط تركي قديم مفروش في أحد الجوانب . ولم نجلس أكثر من دقيقة في الممر ، وكنا تواقين لرؤية ما سيحدث بعد ذلك عندما دخل شيخ الطريقة العجوز the old high Priest متقلدا ببطء في الحلقة arena وجلس متربعا على البساط ، وتبعه حوالي عشرين رجلا ، وكانوا جميعا يضعون فوق رؤوسهم عمام عالية من النوع نفسه ، لكنهم يلبسون صدرات بيضاء ضيقة ذات تصميم تركي ومفتوحة من الأمام وتحت الصدرية حزام وقميص واسع كتنورة النساء . وساروا فرادى بخطوات وقورة وقد علقوا أيديهم أمام صدورهم وانحنوا انحناء شديدا أمام شيخ الطريقة (\*) Priest الجالس . ثم صفوا أنفسهم حول الحلقة إزاء جدرانها . وتلا شيخ الطريقة بعد ذلك دعواته بصوت خشن وراح أثناء ذلك ينحني كثيرا في مختلف الاتجاهات وحذا أتباعه حذوه ، ولما انتهوا من ذلك ارتفعت أصوات الموسيقى - فجأة - عالية صاخبة . وكانت الآلات الموسيقية هي نفسها التي رأيتها وسمعت أصواتها أثناء مشاهدتي لرقصة النحلة في صعيد مصر غير أن الأجراس النحاسية والكمان تلعب هنا دورا أكبر في العزف ، والكمان المستخدمة هنا تشبه الجوزلا gusla عند أهل دالماشيا . كان العزف وحشيا وذا طابع حربي .

وعند المقطع الأول خطا الرجال داخل الحلقة وانحنوا مرة أخرى لشيخ الحلقة old priest وبدعوا يدورون حول أنفسهم to turn لا أحد منهم يلمس الآخر وبقي كل شخص في موضعه ، وفي البداية كانت حركتهم بطيئة لكنها زادت شيئا فشيئا بسرعة حتى أن تنوراتهم الطويلة

---

(\*) لعله شيخ السجادة - ( المترجم )

ارتفعت عاليا . واستمرت الموسيقى صاخبة مندفعة ، وأصبحت ملامح وجوههم ثائرة مهتاجة أكثر من ذي قبل وراحوا يهمهمون وهم يدورون كالخدروف ( النحلة أو الخدروف الذي يديره العصية مستخدمين خيوطا ) كل في موضعه ومدوا أذرعهم وأيديهم ، فهذا يقبض يديه ، والآخر في الخلف يرفعها ، والثالث يبسط كفيه ، وهذا يعنى أن اليد اليمنى تحمل السيف دفاعا عن العقيدة واليد اليسرى تطلب عطايا الرحمن .

ان المنظر الى مثل هذه المناظر يجعل الأوربي يصاب بالدوار ويجرى الدم باردا في عروقه . ان هذا التعصب البالغ يسبب للمرء خوفا ورعبا . ان هؤلاء الناس يدورون حول أنفسهم بسرعة لا تصدق ، دون أن يتزحزح الواحد منهم عن موضعه قيد أنملة ، وتتقلص وجسوههم بعنف وكأنما زلزلوا زلزالا شديدا ، وتحلق عيونهم خارجة من محاجرهما ، وأيديهم النحيلة وخدودهم الشاحبة التي انهمجت في لحاهم القصيرة المنسقة على النسق التركي - كل هذا ينبىء عن الخلل العصبي الذي تسببه المشاعر الدينية غير السوية . وثمة رجل عجوز يرتدى ملابس كالتى يرتديها شيخ الطريقة ( أو شيخ السجادة ) يزحف بين الدراويش وهم يدورون حول أنفسهم لينظم حركاتهم . لقد استمرت هذه الطقوس الدينية فترة طويلة ، ثم توقفت الموسيقى ، فبذل كل درويش قصارى جهده ليستند للجدار . كانوا شاحبين مهزوزين وانحنى كل واحد منهم انحناء شديدا ، وتليت دعوات أخرى ، ثم عزفت الموسيقى مرة أخرى وبدؤا يدورون من جديد .

كم تستغرقه هذه الطقوس الدينية يوميا ؟ لا أدري ، لأننا بعد نصف ساعة غادرنا التكية Convent . ولا أنكر أنني كنت سعيدا أن أرى الشمس مرة أخرى وأن استمتع برؤية السماء الضاحكة والحركة في الطرقات ، وأن أهرب من هذه التكية الباردة الشبيهة بالزنزانة ومسجد الدراويش الكتيب وهلوستهم المرضية المتفسخة .

وهؤلاء الدراويش رهبان غير متزوجين ، ويعيشون - معيشة مشتركة - في منزل واحد . وثمة طرق Sects مرعبة مختلفة على هذا النحو ظهرت في التاريخ الاسلامي المتأخر - ليس في شبه الجزيرة العربية مهد الاسلام حيث العرب الأذكياء ، وانما كان ظهورها - اى هذه الطرق المرعبة - في الشمال بين أهل آسيا الصغرى والقبائل المغولية ، وقد تأثر العثمانيون في آسيا وأوروبا بهذه الخرافات المنحطة فلعب الصوفيون softas دائما دورا مهما في هذه الأنحطه أثناء فترات الهياج الديني والعروب .

وقد وجد الدراويش الدوارون ( اللفافون ) والمهممون ( النباحون ) في القاهرة لفترة طويلة ، لكن هؤلاء الدراويش - خاصة الأوائل منهم - قد تجنبهم العرب الذين تمسكوا بشريعة دينهم الحقة ، واعتبروا ما يقوم به الدراويش انحرفا عن التعاليم الحكيمه للنبي العظيم . لقد كان كل هؤلاء الدراويش الذين رأيناهم هناك من عثمانيين أوروبا وآسيا الصغرى ، وكان من الواضح أنهم على النمط التركي تماما .

ووصلنا للجانب الأوربي من المدينة بعد أن اجتازنا الحي العربي ، وتجاوزنا قصر النائب في القصر العيني ، الذي تشغله الآن زوجة الخديو لنصل الى أقدم أرجاء القاهرة حيث وجدنا أن أكوام النفايات والمقابر وخرائب المساجد القديمة والقاذورات المختلفة ، - أكثر بكثير من المساكن المأهولة بالسكان . وعند نهاية شارع ضيق أغلقته الأحجار وبقايا الخرائب ، توقفنا وعبرنا بوابة تقضى الى باحة ( صحن ) حولها أروقة ظليلة تحفظها النباتات اننا الآن في مسجد قديم دائري ، فوجدنا بمظهره الحرب . واستقبلنا رجل عجوز يدين وعلى وجهه ابتسامة ودود ، وعلى رأسه عمامة مستديرة ويلبس ملابس تركية بهيجة أصيلة ، فتبعناه عابرين بابا ضيقا الى داخل المسجد . كانت الأحجار مقطعة بفراء الخراف ، وثمة درع صديء ورماح وسيوف وخناجر ، وسيوف مثلمة معلقة على الجدران ، وبينها علم أخضر بال ( ممزق ) ، لابد أن هذه الأسلحة النبيلة قد شربت من دم الكفار حتى ارتوت فاستحقت أن تعلق في هذا المكان المقدس ( المسجد ) .

وعندما تبدأ الحرب من أجل الدين الحق ، فإن دراويش هذه الطريقة ( وهي طريقة ذات طابع حربي أكثر من طرق الدراويش الدوارين ، أو الراقصين ) فالواحد منهم يأخذ الدرع ويحمل الراية الخضراء شارة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ويجري وهو يسوى خلال الشوارع صائحا معلنا الحرب والموت للكفرة داعيا المسلمين للجهاد . وقد لعب هؤلاء الناس ( الدراويش ) دورا مهما في الحروب التركية القديمة ، ولا زال الاسلام يضمن لهم أنهم سوف يجدون ميدانا ( مجالا ) لنشاطهم .

وما كدنا ندخل المسجد حتى أقبل الناس الأتقياء فجلس الرجل العجوز الذي استقبلنا في الوسط على فراء خروف . وتحلق أتباعه حوله في حلقة ، وتلا دعوات بصوت عال ، وراح يكرر دعواته مرات عدة ، ويكرر المتحلقون حوله ما يقول ، وعزفت الموسيقى - تماما كما هو الحال عند الدراويش الدوارين - أصواتا عالية بربرية ، وتوافقت حركاتهم المستمرة مع القرع الموسيقى ، وراح الواحد منهم يحرك جزء جسمه

العلوى للخلف وللأمام . وكان هؤلاء الدراويش يتأوهون ويندبون ويهيمون بالكلمات نفسها بشكل غير مفهوم ولا مبين على الإطلاق . لقد كان المنظر كله كثيبا بشكل يبعث على الألم والرثاء . كان هؤلاء الدراويش يلبسون عباءات بريقة طويلة ويلفون خواصرهم بحبال بسيطة . وهم تكس كل المسلمين لا يضعون فوق رؤوسهم أى غطاء للرأس ، وشعر الواحد منهم طويل مهوش ولحيته طويلة ، وعندما يميل ببدنه الى الخلف ( يثنى جزعه الى الوراء ) يتهدل شعره حتى يصل الى الأرض ، وعندما يميل بجسده مندفعاً للأمام يغطي الشعر وجهه بشكل مهوش . عيونهم زائفة تدور ، وأجسادهم تهتز بعنف والرغبة والزبد يغطي شفاههم ، وكان ثمة رجل ضخم منهم - بالذات - له لحية سوداء يمثل أقصى درجات الانجذاب الوحشي المتبربر .

ولم نمكث طويلا في هذا الجو المقبض ثقيل الوطأة وتبعنا شيخ الطريقة العجوز Old high priest وكل أتباعه ( مريديه ) حتى الخارج ، ولما خرجوا ورائنا كان كل واحد منهم قد غطي رأسه ، فارتدى معظمهم طواقى بنية وقدموا لنا - تحت تعريشة ظليلة بدائية - قهوتهم السيئة .

وسألت عن أصولهم فوجدتهم مثل الدراويش الدوارين يتحدثون جميعا التركية ، ولم يكن منهم عربي واحد . وكان شيخ الطريقة العجوز من اليونان وكان عثمانيا خالصا ، أما الآخرون فكانوا تركا من اسطنبول ، والروميلي Roumelia وغيره من ولايات البلقان وقد حضر حلقة الذكر هذه مسلمون آخرون أيضا من القرم وآسيا الصغرى ، وكردى واحد من بغداد كان يضع فوق رأسه عمامة خضراء كبيرة .

واستأذنا في الانصراف بعد فترة قصيرة وعدنا الى قصر النزهة ، وكان يتحتم أن تسرع لأنه كان علينا أن نحضر هذا اليوم - دون ملابس رسمية - غداء خاصا في قصر الخديو ، وعدنا لقرر اقامتنا سريعا بعد الغداء لأنه كان يتعين على الخديو أن يذهب مساء لمسجد الحسين لحضور احتفال ديني وكنا سعداء - بعد هذا اليوم الحافل المثير - أن نخلد للراحة .

وفي بكور اليوم الثالث من هذا الشهر ذهبت الى مقابر الخلفاء ، وحالما انتهى الطريق الذي لا تستطيع العربية ( المحنطور ) السير به ، وذلك عند آخر منزل في الطريق - ركبنا حميرا فسارت بنا بين المقابر ، وسرعان ما وصلنا لسفح حيد مرتفع من حيود جبل المقطم ، وسلكنا الطريق نفسه الذي سلكناه من بضعة أسابيع خلت ، وتسلقنا الحيد ولم يمض وقت طويل حتى كنا راكضين في مكن ضيق غير ملائم .

وبعد ثلاث ساعات طوال ملة خالية من الأحداث تماما ، ظهرت بعض الحداث ونسور الجيف ، وبمجرد أن بدأت تتناول وجبتها حتى سمعت صوت تحريك ثقيل لجناحي طائر كبير ، وفي الحال تشتت شمل الضيوف الأقل قيمة وحط نسر كبير ذو رأس بيضاء - وجناحاه لم ينضجا لبدته تماما - على ظهر جثة الحمار وشرع يتناول لفظاره دون تأخير ، ولم أتوان بدورى لحظة واحدة فالقمته طلقة فانطرح وخرجت من كهفى زاحفا وحملت فوق كنفى غنيمتى الثقيلة وهبطت الجبل متجاوزا الصسخور والحيود وآكوام الحجارة الى حيث الخدم والحمر فى انتظارى . وقبيل الظهر كنا فى قصر النزهة مرة أخرى .

وبعد الافطار استرحنا قليلا ، وقررت أنا والدوق الكبير أن نزور حديقة شبرا فحملنا بنادقنا وركبنا أحد الحناطير الذى سار بنا فى حى شبرا القاهر حتى أسوار الحديقة العالية . انها حديقة واسعة مسورة وثمة قلعة بين الأشجار السامقة والشجيرات الكثيفة ، وهى محاطة بأحواض المياه والعرائش ( الشقائق ) وأحواض الزهور ، وثمة مساحة واسعة مخصصة لأعداد الطعام ، وثمة بساتين يرتال داخل هذه الحديقة ، بل ان هناك مساحات مزروعة بالقمح الذى لم يصفر لونه بعد . وكانت البقع الندية الرطبة مزروحة بأسراب طيور البلشون ( مالك الحزين ) الرمادية ، بينما على أشجار الصنوبر التى تزين تلا صناعيا بالقرب من القلعة - تحط أعداد كبيرة - بشكل لا يصدق - من طيور البلشون البيضاء مثلثة الجسم *plump aigrettes* .

وعكنا صفو هذه الطيور ، لكن كان علينا - للأسف - أن نخادر هذه الحديقة الفاتنة بسرعة بمجرد أن راحت أغصان أشجارها الهامسة تسبح فى الضوء الذهبى للشمس الفاربة - حتى نصل لقر اقامتنا فى ميعاد تناول العشاء . والقينا نظرة مشتاقة على حقول القمح المتموجة ، وكان من السهل أن استنتج أن هذه البقعة المحاطة بالأسوار ملائمة تماما لبعض الطرائد التى نبغى صيدها . وبعد ذلك بأيام قلائل أخذ ساورما بنصيحى ، فلحى للاصطلياد فى حديقة شبرا هذه فقتل وشقا ونمسا .

وتناولنا عشاءنا عند وصولنا قصر النزهة مع الأخوين ساورما ، وكان ساورما الصغير والأمير تاكسيى *Taxis* قد عادا منذ يوم واحد فقط من رحلة طويلة مرهقة لجبال البحر الأحمر لبيحنا - عينا - عن اللوعل ( التيس ) العربى .

وفي الرابع والعشرين من مارس خرجت مجموعتنا كاملة - مبكرا -  
الى طريق هليوبولس - الى آخر حدود المدينة حيث نصبت لنا خيمة  
مزدانة بالأعلام في الهواء الطلق .

#### افتتاح مستشفى النمساوى :

وكان عدد من الناس قد تجمعوا هناك ، كما كانت الجالية النمساوية  
المجرية موجودة بأعداد كبيرة ، ذلك أننا كنا بصدد الاحتفال بوضع حجر  
الأساس للمستشفى النمساوى . وقد دبر كاتولى بك Catouli Bey  
- وهو تاجر يهودى ثرى يحظى بالحماية النمساوية - بسخاء كل الأموال  
اللازمة لهذا المشروع الطيب ، وقد حضر هو نفسه مرتديا الزى اليهودى  
التقديم . وتم الاحتفال وسط ابتهاج الحاضرين بينما كانت تعزف الموسيقى  
السلام الوطنى ( النمساوى ) . لقد كان احتفالا وطنيا تمت وقائمه بعيدا  
عن وطننا الغالى فى ركن آخر من أركان المصورة .

وبعد انتهاء الحفل عدنا مباشرة الى الخديو لاستئذانه وتقديم  
«الشكر له ، وقد عاد بدوره بسرعة الى قصر النزهة ليصبحنا الى محطة  
السكك الحديدية . وغادرتنا قلعتنا فى حى شبرا ونحن نشعر بالأسف  
وسارت بنا الحافلة فى شوارع شبرا وقد غمر الحزن قلوبنا .

#### مقادرة القاهرة :

ولما وصلنا محطة السكك الحديدية وجدنا كتبية مشاة قد اصطفيت  
أمامها لتحيينا بالسلاح بينما تعزف موسيقا نشيدنا الوطنى . وكان على  
درجات المحطة عدد كبير من مواطنينا مع المسئولين المصريين ، وبرجش  
باشا والأخوان ساورما والأمير تاكسيس . واستأذنا الخديو Viceroy  
الذى لاقينا منه رعاية لم تنقطع ، وكذلك ودعنا أصدقاءنا جميعا ، وتحرك  
القطار ببطء خارجا من المحطة . لقد شعرنا بغصة ونحن نلقى نظرتنا  
الأخيرة على مدينة الخلفاء الجميلة وعلى منحدرات المقطم والقلعة الشامخة  
والأهرام الساحرة . لقد كنا الآن بصدد مناطق جديدة وأراض أخرى .

١١٨

لقد سار بنا القطار على الخط نفسه الذى سافرنا عليه منذ أيام  
قلائل ، ففي البداية مررنا بأرض زراعية ، وبعض المدن ، كثير منها له  
جاذبية تاريخية ، فعلى سبيل المثال - شبين القناطر ، وهى مدينة عربية  
حديثة ، بالقرب منها - فوق ما كان يسمى بتل اليهودية Tell el-Yehudiye  
كانت تقع مدينة محصنة فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل حقبتنا ،  
وكان فيها - زمن حكومة بطلميوس فيلوميتر Ptolemy Philometor



— معبد يهودى أقامه أونياس Onias كبير الكهنة ، لليهود المطرودين من فلسطين ، وإلى الأبعد تقع بلبيس Bilbés ( بيلابس المصرية القديمة Pilabes ) ، وهى مدينة مشهورة — خاصة فى العصور الوسطى — اذ كانت مقرا للحكام العرب المنوط بهم ادارة منطقة شرق الدلتا . ثم أتت الزقازيق ، وهى مدينة واسعة معروفة بنشاطها التجارى استقر فيها عند كبير من أهل الشرق ( شرق أوروبا وتركيا والشام ) ، وبالقرب منها تل أثرى مهم هو تل بسطة Tel-Basta الذى احتفظ لقرون ببقايا معابد مدينة بوباستيس Bubastis ومنازلها ، وبوباستيس هذه مشهورة فى التاريخ القديم ( وتعنى بالمصرية القديمة بى — باست Pi-bast ، وتعنى مقر الربة باست Bast ، وبالعبرية Phi-beseth ) وكانت الربة باست تعبد هنا فى معبد واسع باهر . ولا تزال صور هذه الربة محفورة على الحجر والبرونز تستخرج من خرائب التل ، وتمثل الربة باست بامرأة شابة نحيلة تحمل إحدى يديها صلاصل ( صاجات Sistrum ) وفى الأخرى سلة ، وليس لها رأس أنثى وانما رأس قطة ، فالقطط رمز مكرس لها . وتشير النقوش اليها — غالبا — على أنها الشكل المحلى للسلام والصحة اللذين تجلبهما الربة ايزيس .

والى الشرق من بوباست Bubastis ( التى كانت عاصمة لاقليم سسمى باسمها بوباستيتز Bubastites ) . — كان يقع فى العصور القديمة النصف الجنوبي من ولاية شسبه الجزيرة العربية المجاورة the adjoining province of Arabia التى لا تعرف عنها سوى القليل فى الكتابات الكلاسية المتعلقة بالصور القديمة . انها الأرض التى أشار اليها الكتاب المقدس باسم جوشن Goshen (\*) .

الخط الحديدى يعبر هذه المنطقة بخط مستقيم الى الشرق ، ويسير حذاء ترعة المياه العذبة فى وادى طميلات Tûmilat . وعند مدخل هذا الوادى — عند تل (أبو سليمان) Tell-abu-Soliman توجد بقايا مدينة Pithon أبو باتوموس Patumos التى أجبر فيها اليهود على العمل قبل الخروج ( من مصر ) . وفى الجزء الشرقى من الوادى — نحو بحيرة التمساح — وجده النصب التذكارى لرمسيس الثانى بالقرب من Mas-Chûta مع تماثيل أبى الهول ، وأحجار ذوات نقوش ، وبقايا مبان قديمة من القرميد . وقد عرف ليسبس Lesseps وأغلب الدارسين هذا الموقع باعتباره مدينة رمسيس التى أشار اليها الكتاب المقدس ، لذا فإن محطة السكك الحديدية تحمل اسم رمسيس .

(\*) ورد فى قاموس الكتاب المقدس الذى ألفته مجموعة من اللاهوتيين أن أرض جوشن مدينة فى جبال يهوذا وهى قرية الظاهرية الحديثة — ( المترجم ) .

## الى السويس :

وبعد مغادرة الوادى Wadi ( الآن ذكروه ) يمر الخط الحديدى الى المحطة الأخيرة للاسماعيلية ، ويستمر الخط الحديدى جنوبا عبر الصحراء على طول الساحل الغربى للبحيرات المرة ، وهذه البحيرات : الشمالى منها والجنوبى تقدم للرائى منظرا شائقا بمياهها الزرقاء المتألقة ، وإلى الغرب منها جبل جنيقة Geneffe ذو الشكل المحدد الجميل حيث المهاجرون تزال تستخدم على نطاق واسع حتى أيامنا هذه - خاصة فى المواضيع التى بها أحجار رخامية ، وأخيرا ألقينا نظرة على جبل عتاقة الداكن المهيب ثم أخبرنا البحر اللازوردى اللامع كالمرآة أننا اقتربنا من ميناء السويس .

ان المرء ليدعش وهو داخل للمحطة بمنظر الميناء الغاصة بالسفن القادمة من مختلف البلاد . ان السويس التى وصلناها قبيل المساء مدينة لا طعم لها ولا أهمية ( لا شخصية ) فنادقها البائسة ومساكن القناصل الخاصة - كل ذلك ليس له طابع خاص البتة وإنما على النسق الغربى تماما ، بل ان أرصفة الميناء المدينة وأبنيتها لا تؤكد جمال المدينة أو الميناء .

لا يجعل هذه المدينة شائقة سوى أهميتها التاريخية الفاتكة ، تلك الأهمية التى تنسحب بدورها على البحر الأحمر بمياهه الصافية وسطحه الهادئ وسواحله الجميلة رغم حزنها وكآبتها . وذهبنا سراعا لتناول طعامنا فى فندقنا فقد أرحقنا الرحلة الساخنة . لم يكن فى هذا الفندق الانجليزى المهمل سوى قليل من النزلاء : بعض رجال الأعمال الانجليز كانوا يستحبون قليلا من عناء السفر حتى يواصلوا رحلتهم التى بدوها من الهند - الى أوروبا ، ومبشر تعس - لكنه مسل تماما - وهو ليقطنات سكسونى فى الاحتياط ومبشر فى آن واحد ، وقد رغب فى تحويل الأفريقيين فى المناطق الداخلية ( للمسيحية ) ، وكان مقتنعا من الناحية النظرية بأهمية مهنته وبأهمية المناطق التى سيبشر فيها ، لكن - من الناحية العملية - بدا الرجل تنقصه البراعة والخبرة ، والأهم من كل ذلك ، ينقصه المال ، وكان ينتظر فى الفندق بالسويس حتى تحين ظروف موالية . واستيقظنا مبكرا فى صباح الخامس والعشرين من شهر مارس وبعد أن أفطرنا على عجل غادرنا الفندق وقطعنا المدينة لنصل الى مرسى البواخر فى الميناء وانى مدين لصدىقى برجش باشا - العالم البارز - لوصفه الذى يدعو للاعجاب - لهذه الولاية ، ولا أجد أفضل من نقل جانب من خطابه الثرى بالملاحظات العلمية .

« في الجانب الشمالى من المدينة يوجد تل صغير به آثار قديمة  
 — أسماء العرب تل القلزم Tell-Kolzum ، وهذا الاسم العربى يذكر  
 باسمه القديم Cylsma — وكانت توجد هنا فيما مضى قلعة محصنة  
 قوية لحماية الميناء . وبانتهاء القناة القديمة فقدت المدينة أهميتها لكن  
 ذكرها بقيت فى كتابات المؤلفين العرب الذين غالبا ما استخدموا مسمى  
 بحر القلزم ليشيروا لما هو معروف اليوم باسم خليج السويس . وزيارة  
 الميناء الحديثة بأشغالها وحواجزها ومخارجها وسدودها ذوات البوابات ،  
 وقنوات المياه العذبة ( الترغ ) — كل ذلك وحده يمكن أن يدلنا على الجهود  
 المبذولة اليوم فى مجال تطبيقات الهندسة الميكانيكية على المياه . ولما كان  
 غير المعروف أكثر جاذبية من المعروف ، والماضى — يثير الفضول أكثر من  
 الحاضر ، والموروثات المنقولة أكثر مدعاة للسرور والبهجة من الحقائق  
 التاريخية المؤكدة — لذا فإن الحجاج ( المسلمين ) يتلبثون على سواحل  
 البحر الأحمر مستغرقين فى أفكار ضاعت مع الزمن ولم يترك لها الزمن  
 فى التاريخ أثرا . فإين كانت البقعة من البحر ( الأحمر ) التى غرق فيها  
 فرعون وجيشه ؟ وأين الطريق التى قاد فيها موسى شعبه عبر الصحراء  
 الى جبل سيناء ؟ تلك هى الأسئلة التى تفرض نفسها على المسافرين المسيحي  
 فى هذه الأرض . أسئلة عن الماضى والحاضر لا يمكن الاجابة عنها الا اجابة  
 احتمالية على نحو أو آخر .

والنقطة الوحيدة التى تساعد فى الاجابة على استفساراتهم هو موقع  
 آبار موسى (٢) فى الجانب الآسيوى لخليج السويس غير بعيد عن الساحل  
 فى واحة خصبة . وأكبر هذه الآبار قد أحيط بسور فأصبح كأنه خزان  
 ماء ، ويعتقد أنه هو بئر موسى الحقيقى الذى فجره صاحب الشريعة  
 اليهودية من الصخر والذى أحال مياهه المرة الى مياه عذبة بالقاء غصن  
 قيه .

وعندما تهبط الشمس غاربة فى المساء ملقبة بأشعتها البرتقالية على  
 جبل عتاقة Ataka الشامخ ، وعندما يرسل البحر بين الساحلين الآسيوى  
 والأفريقى أمواجه الشفافة الزمردية لتصافح الساحل بحنان ، وعندما  
 تبهت الألوان ببطء ثم تضيع مندمجة فى اللون البنفسجى ، ثم فى  
 الزرقة ، ثم تلتشى فى سديم رمادى — عندئذ فإن صورة الطبيعة  
 البسيطة — والعظيمة فى آن ، تترك تأثيرها كاملا ، فتستجيب لها الروح  
 استجابة تفوق الوصف ، يظل أثرها باقيا حتى بعد العودة لأوطاننا  
 الشمالية ، سناظرها المختلفة وجمالها الطبيعى ، ذلك لأن المكوث طويلا  
 وعميقا فى الشرق يحرك القلب بأحاسيس مرتجة باعتباره الوطن الأصل  
 ( الحقيقى ) .

فهنا - عند آبار موسى - تكون في آسيا ، وهناك على الساحل المقابل لهذا البحر الضيق ، تقع أفريقيا . كيف لا تنهمر الفيوضات التاريخية على عقل الانسان عند رؤيته هذه المنطقة الرابطة بين قارتين ، كيف لا يعود الانسان بعقله الى عهود قديمة ، اننا نرى في فجر التاريخ البشرى قبائل حام ( القبائل الحامية ) تبدأ من آسيا - مهد جنسنا الأوربي - وقد تملكته غريزة الهجرة ، فاتجهت غربا عبر جسر الأهم the bridge of Nations ، برزخ السويس Isthmus of Suez لتدخل القارة السوداء وتستقر فوق تربة مصر الخصبة مبحرة جنوبا في النهر لتشيد المدن والدول ، ولتترك آثارا عظيمة دالة على وجودها .

« ويبدو أن منف كانت أقدم المراكز ( المحطات ) التي استقبلت الهجرات الآسيوية . فمن المناسب أن تسمى الأهرامات « حجارة تخوم العالم the boundary stones of the world » (\*) . ثم توالى آثار مصر الوسطى والعليا بعد ذلك تبعا لانتشار جنس الآباء الأول للمصريين نحو الجنوب - في مصر الوسطى والعليا - حاملة أبلغ الشواهد على أقدم الحضارات التي أبدعها هذا الجنس أثناء توغله جنوبا حول ضفاف النيل ، وثمة هجرة حامية أخرى اختارت الطريق البحري وأتت لمصر من سواحل فارس وشبه الجزيرة العربية ، ويقصد بهم الكوشيون Cushites ذوو الوجوه البنية المحمرة ، وهم الأثيوبيون في الموروثات الكلاسية . انهم ملاحو العالم القديم . وعلى سواحل Arab by the Blest في أرض الصومال الحالية ، وفي الحبشة وفي وديان النوبة المثمرة أسسوا أوطانهم الجديدة ، وراحوا يتصارعون - بشكل دائم - مع الأجناس الزنجية التي كانت تسيطر على النيل ، وما تآخمه من أراض من أقصى الجنوب حتى أسوان .

وتقدمت جماعات الكوشيين من سواحل شبه الجزيرة العربية شمالا ، واستقرت في أرض كنعان وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وكانت الجبيل ( بيبلوس ) وصور ، وسيدون Sidon هي الأماكن الأولى التي استقر فيها هؤلاء المهاجرون الكوشيون أسلاف الفينيقيين ، وقد جعلوا منها موانئ ، أو مراكز ( محطات ) بحرية . وثمة مجموعة أخرى ، من جنس مشابه أتت بحرا ودخلت الخليج الفارسي واستقرت على شواطئ الفرات ، وسرعان ما أصبحوا هم القوى الحاكمة في السهل العظيم الممتد بين دجلة والفرات . وأقدم السجلات عن هذه الهجرة ارتبطت باسم نمرود الصائد العظيم وابن كوش Cush الذي أسس

(\*) أو « الحجارة الحدودية للعالم » أو « حدود العالم » ، الخ .

( المترجم ) .

— وفقا لمرويات الكتاب المقدس — مملكة قوية في الأجزاء الشمالية من المنطقة المشار إليها . ومرة أخرى كانت هناك قبائل كوشية غزت شرق الدلتا قادمة من شبه جزيرة العرب — قبل الميلاد بألفى سنة ، وأسست هناك امبراطورية الهكسوس . وطول خمسمائة سنة استطاعت هذه القبائل أن توطد لنفسها في الدلتا تحت حكم ملوك من جنسها وتابعت زحفها صوب الجنوب متتبعة مجرى النيل حتى طيبة ، ولم يهزموا الا بعد معارك حامية الوطيس شنها عليهم ملوك من الجنس المصرى . وفى متحف بولاق مجموعة ثرية من التماثيل التى تبين وجود الحكام الكوشيين فى مصر بشكل يدعو للاعجاب الشديد ، وتمكننا من دراسة خصائص هذا الجنس الكوشى الفازى . وبعد طرد الهكسوس شهدت شبه جزيرة السويس *The Peninsula of Suez* (\*) الجيوش المصرية تزحف شرقا لتنتقم من طغاة باشرروا طغيانهم على مصر قرونا كثيرة . وتقدم الفراعنة المنتصرون الى يابل ونيوى وقهروا — فى طريقهم — عديدا من القبائل وزبللدان ، وحكموا — لأكثر من أربعمائة سنة — أعظم امبراطورية فى غرب آسيا وأقواها .

• ولحماية حدود مصر من الهجمات القادمة من الشرق تم انشاء الأسوار والتحصينات فى شبه جزيرة السويس ( كذا ) وبدأت هذه الأسوار وتلك التحصينات بالقرب من الفرما ( البوليزيوم ) — الى الشرق من بورسعيد الحالية — وحتى هليوبولس . وكان لابد من الحصول على إذن فرعون قبل أن يسمح لأى جنس سامى بتجاوز هذه التحصينات — خاصة زمن المجاعات — والوصول للمراعى الخصبة قرب بحيرة المنزلة . ورحلة يعقوب فى مصر تلقى الضوء على الخطوات الرسمية التى يجب اتخاذها للاستقرار فى هذا الجزء من الدلتا . وبانهيار قوى الفراعنة أصبح برزخ السويس *Isthmus of Suez* — خاصة فى جزئه الشمال — مسرحا لتحركات مستمرة للقبائل ، فحدثت غارات ، ومعارك : معركة اثر معركة بالقرب من الفرما عند خط الدفاع الخارجى وعبرت الجيوش الأجنبية مستخدمة الفرع البلوزى ( الفرع الفارمى ) للنيل حتى وصلت هليوبولس ومقر الحكومة شديد التحصين فى منف .

وعندما سد الفرع البلوزى (٣) ( الفارمى ) للنيل بسبب سحب مياه البحر المتوسط من الساحل السورى ( ؟ كذا ) وإهمال قنوات الرى وأعمال تنظيم المياه فى شرق الدلتا خلال أحلك فترات التاريخ المصرى ، تراجعت المنطقة وتدهورت بعد أن كانت حديقة الرب ، وأصبحت الحقول

(\*) كذا فى الأصل — ( المترجم ) •

والسهول - التي كانت يوما مزدهرة بالخضرة - صحارى غير مشجرة .  
ومياه الفيضان التي كانت تملأ الفرع البلوزى ( الفارمى ) للنيل - بشكل  
أساسى - قد تحولت الى الفرع الغربى ، وأصبح الفرع الكانوبى Canopic  
هو الفرع القوى ( الغنى بالمياه ) وشيدت الاسكندرية بالقرب من مصبه  
وأصبحت مركزا تجاريا مرموقا فى عهد البطالة والرومان ومركزا للحياة  
العقلية فى الدين والفلسفة والآداب . وعادت أهميتها القديمة فى  
أيامنا . على الأقل فى ميدان التجارة . حقيقة ان طريق برزخ السويس  
Isthmus of Suez يعد شريانا أساسيا من شرايين المواصلات ، لكن  
ما يقال غالبا من أن بورسعيد ستحتل يوما ما مكانة الاسكندرية أمر غير  
قائم تماما رغم كل ذلك .

• فموقع الاسكندرية المناسب الى الغرب الذى يجعلها أسرع اتصالا  
بالموانئ الأوروبية من بورسعيد ، وكذلك قريبا من الأراضى الزراعية فى  
الدلتا ، وما تتمتع به من وجود سكك حديدية وما يصلها من طرق ،  
وما بها من أسواق بضائع وصرافة وما تقدمه بشكل عام من وسائل  
تجعل الحياة مريحة - كل ذلك يقنعنا - رغم كل الصعوبات فى ميناها -  
أنه يجب أن ننظر للاسكندرية كواحدة من أهم المدن التجارية فى مصر  
المستقبل .

ولا يمكن لبورسعيد أن تحتل مركزا مائلا لمركز الاسكندرية  
الا اذا أصبحت قارة آسيا منافسة لأوروبا فى مضمار التجارة - وهذا أمر  
لا يمكن تصوره الا فى المستقبل البعيد . لقد اندرس برزخ السويس  
Isthmus of Suez تاريخيا ، وقبرت الصحراء آخر آثاره فى الرمال ،  
وطريق القناة لا تقلم اثاره خاصة ، فمن بورسعيد الى السويس  
تبدو القناة كخط مياه أزرق يقطع الصحراء ، فالصحراء تحيط بالقناة  
من الجانبين ، والبقعة الوحيدة التى تسترعى الانتباه معروفة باسمها  
القديم قنطرة الخزنة Kantara-el-Chazne الى الشمال من بركة  
البلاح Dattel lake . انها - أى قنطرة الخزنة - تعد بمثابة علامة تبدأ  
عندها طريق القوافل المصرية الى آسيا .

• وفى بواكير التاريخ المصرى كانت توجد فى هذه البقعة قلعة قوية  
على ضفتى القناة التى كانت تربط بحيرة المنزلة ببركة البلاح Dattel lake  
وتبين صورة من عصر الملك سيتى الأول Seti I ( والد رمسيس الثانى ،  
سيزوستريس ) على الجدار الخارجى الشمالى للمعبد العظيم لآمون فى  
الكرنك - بوضوح جسرا يصل من جانب الى جانب عبر هذه القناة الآنف  
ذكرها . وعند هذه النقطة بدأ ذلك الاقليم الشرقى الذى أطلق عليه  
المصريون اسم هزيان ( حزيان Hazion or Hazian ) الذى أسماه اليونانيون

Casium وأسماء الرومان Casion - وكان هذا الاسم يشير الى الجزء الجبلى من الصحراء بالقرب من بحيرة سيربونيس Serbonis (\*) (وهي الآن مجرد سبخة) ، وتقدم هذه الجبال داخلية البحر المتوسط مشكلة قنة ( يضم القاف وتشديد النون ) ، وكان الضريح المقدس يقع هنا ، وكان مكرسا لحارس المنطقة زيوس كاسيوس Zeus Casius . وقد حُرف العرب الاسم القديم Hazion فجعلوه خزنة Chazne وظل الاسم ممثلا في قنطرة الخزنة . وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن طريق الفلسطينيين القديم Way of Philistines كما سُمي في الكتاب المقدس الذي سلكته جيوش فرعون وجيوش الغزاة الأجانب - من القنطرة الى فلسطين - يقع بين البحر المتوسط وبحيرة سربونيس ، الا أنه - مؤخرا وفي العصور الحديثة - جرى تفضيل الطريق الواقع الى الجنوب من البحيرة حيث طريق القوافل الصحراوى .

ولنعد الآن لمتابعة وقائع رحلتنا بعد أن استمتعنا بهذه الملاحظات القيمة التي قسمها واحد من أبرز علماء التاريخ المصريين .

#### سيناء - عيون موسى :

لقد حملتنا الباخرة باخرة القناة المصرية فوق مياه البحر الأحمر الخضراء الجميلة الى الساحل العربى (\*\*) وتوقفت عند أقرب نقطة لعيون موسى ، وسرعان ما اتجهت مجموعتنا جميعا في طريقها - عابرة الصحراء - الى هذه العيون ، فوق ظهور حيد صغيرة ، لقد كانت هي المرة الأولى التي نطا فيها الأرض الآسيوية (\*\*\*) . ان الصحراء العربية تختلف تماما عن الصحارى الافريقية ، فاللون الأبيض المتألق حل محل اللون البرتقالى بمرجاته المختلفة ، أنها جرداء تماما لا يقطع تحولها سوى شجيرات هنا وهناك .

وعيون موسى التي وصلناها بعد نصف ساعة تقع وسط واحة صغيرة جدا ، وثمره حديقة يانعة حول العيون التي تنبجس من خفر على شكل أقماع ، وابتهجت عيوننا بالنخيل والشجيرات والحشائش الطويلة والنباتات العريضة أوراقها . وثمره أكواخ قليلة يقطنها بعض البدو الفقراء (٤) .

(\*) بحيرة البرنويل الآن - ( المترجم )

(\*\*) المقصود سيناء - ( المترجم )

(\*\*) المقصود هنا سيناء كما يتضح من السياق - ( المترجم )

ولم أر - بالإضافة لطيور السنونو ( طيور الخطاف ) سوى سحلية  
وأعداد كبيرة من الحرياء تغير ألوانها فى كل لحظة ، وتتسم بالنعالة  
كانها أوراق • ويدت آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى مما يشير  
الى أن هذه الحيوانات ترد ماء العيون ليلا •

وكان البدو الذين رأيتهم عند العيون فى ثياب خلقة • ولبنادقهم  
البدائية ذوات الأحجار القداحة flint guns حبال طويلة ملفوفة  
حولها ، ويشعلون فيها - أى فى هذه الحبال - ويتركونها تشتعل حتى  
تصل النار الى البارود فى الخزنة ، ويجب أن ينتظر الصيادون البوماء  
لعدة دقائق ترقبا للحدث السعيد • وطلبنا منهم إطلاق بنادقهم فى  
حضورنا • انها أسلحة مريكة يحتار المرء فى وصفها بسبب قلة شأنها  
وبدايتها •

ويختلف هؤلاء الناس - كثيرا - فى مظهرهم عن البدو الحقيقيين •  
فقد بدوا فى عيني يهودا داكنى البشرة • كما أن قوام الواحد منهم  
وملامحه اسرائيلية تماما ، وإن كان يتحتم على المرء أن ينصرف عقله الى  
أنهم من ذرية هاجر Hager الذين خرجوا من صحراء شبه الجزيرة  
العربية ، وهم ذرية اسماعيل Ishmaelite المشهورون بالصييد  
والسلب ، وهذا ما ورد فى معظم أشكال الروايات الخرافية عن فجر  
التاريخ الشرقى ، وتحتل هذه الفكرة أهمية بالغة •

ومن فوق تل الجرد بالقرب من عيون موسى ألقينا نظرة من بعيد عبر  
الصحراء العربية البيضاء المتألقة بحيودها الصخرية وأوديتها - الى  
الجنوب حيث جبال سيناء المرتفعة ، وإلى الغرب - عبر البحر الأحمر -  
حيث جبل عتاقة فى أفريقيا ، كانت السحب الكثيفة فى السماء تضيئ  
على المشاهد شيئا من الجهامة •

وبعد فترة قصيرة عدنا للساحل وبحثنا لبعض الوقت عن الأصداف  
فى الرمال ، فالبحر الأحمر مشهور بشراء أصدافه وقد وجدنا فى غضون  
دقائق قليلة ما لا يحصى من الأصداف الجميلة • ليس لدينا وقت وعلينا  
أن نعود لبأخوتنا • وبالفعل عدنا وتجاوزنا السويس ودخلنا القناة ،  
وهنا كما فى كل مكان ، وجدنا ضفتيها جرداوين ، وأفضل أن أترك  
برجس باشا - مرة أخرى - يحدثنا عن القناة فهو قادر على إثراء الحديث  
بإضافة البعد التاريخى على المشاهد الرائعة •



## برزخ السويس - جسر الأمم :

« ان زيارة لجسر الأمم القديم الذى يفصل أفريقيا عن آسيا لا تعوض - اطلاقا - المسافر عن مشقته بمنظر ذوات جمال طبيعي تمر أمام عينيه ، وتدفعه للتوقف ، بسل العكس هو الصحيح ، فالشعور بالجفاف يملأ الروح عند النظر للصحراء الجرداء المليئة بأكوام الرمال ترتفع فى وسطها كتل جبلية حمراء تبدو متناقضة مع السماء الزرقاء الصافية - بأشكالها ذات الشقوق والصدوع المحددة تحديدا حادا ، ولا شئ سوى الضوء الباهر والشفافية وتدرجات الألوان الواهنة بشكل مذهش ، تلك الظواهر التى تصبها شمس الشرق على الطبيعة فتجعل حتى للصحراء جاذبية شعرية تناجي الروح وتدعوها للإجابة وتغمرها بأفكار شاعرية غامضة ، لكن بحر النور واللون الذى يضرر أرض الصحراء بأواجه يدخل العين والعقل ، وان كانت النفس أيضا تتوق لأطفال الريح الذين تخلوا عن مكانهم لعالم الضسوء غير المحدود وتراجعوا خجلين الى الأرض السوداء حول ضفاف النيل . »

لقد وصف المؤلفون مصر - عن حق - بأنها حبة النيل . وقد أكدت البحوث الجيولوجية الحديثة وحدها هذا القول ، فبعد أن توغل النيل فى اتجاهه نحو الشمال خلال الجرانيت والحجر الرمل وكون التلال مجتازا الجنادل فى أكثر المناطق صعبة ، نجده يدخل منطقة مكوناتها من حصى وبلور صخرى ، ويتخذ طريقه للبحر بعد أن يقطع مسافة طويلة ليصل لما نعرفه الآن بوادى النيل الخالص ( الحقيقى ) ، لقد كان البحر الى الشمال من القاهرة خليجا عريضا يمس بساحله الغربى الصحراء الليبية ، ويمس بساحله الشرقى الصحراء العربية . وأثبتت البحوث الجيولوجية الحديثة المعتمدة على بقايا الحياة الحيوانية والنباتية فى عصور ما قبل التاريخ فى تربة الصحراء خلال شق قناة السويس - بشكل قاطع - أن برزخ السويس كان فى يوم من الأيام نقطة التقاء البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، فأمواج البحر المتوسط كانت تضرب فى فوهة القناة الشمالية التى صنعها هذا البحر نفسه ، بينما كانت أمواج البحر الأحمر تتوغل خلال الأجزاء المنخفضة من الصحراء العربية ( الشرقية ) فاتصلت رويدا رويدا بمياه البحر المتوسط ، وبذلك انفصلت آسيا عن أفريقيا بمسافة تبلغ حوالى سبعين ميلا .

وبمرور الزمن فإن موج البحرين حمل معه بالضرورة رمالا ( جرف معه رمالا ) فتكون - شيئا فشيئا - كثيب رملى سرعان ما أصبح جسرا ( حاجزا ) متينا ، وهذا الجسر الذى يقع فى منتصف البرزخ أو الى الشمال

من المنتصف قليلا ، يرتفع الآن لحوالى ستة عشر مترا ، وهو معروف  
بالفعل باسم الجسر El-Gisr .

« وهذا الجسر هو أعلى نقطة فى المسار ( فى الخط ) الذى نصفه -  
وكان هو الرابط البحرى الوحيد الذى كان يمكن عن طريقه عبور ما يعرف  
الآن ببرزخ السويس ، ويجب أن نفترض أن دلتا النيل كانت تتكون  
فى الوقت نفسه الذى كان فيه هذا الجسر يتكون ، فالطمي المجلوب عاما  
بعد عام مع فيضان النيل نتج عنه فى المقام الأول تكوين الأرض الزراعية  
فى مصر العليا - وبالطريقة نفسها كونت الارسابات فى حوض عريض  
بين الصحراء الليبية ( الغربية ) والعربية ( الشرقية ) وامتد هذا الحوض  
شمالا حتى المدى الذى وصل اليه الآن ، فالدلتا هى - بالمعنى الحرفى -  
هبة النيل حيث كانت المياه تمر فيها من خلال ثلاثة فروع رئيسية وخمسة  
أصغر منها - وكلها كانت تتخذ مجراها الى البحر المتوسط ، لكن الأمواج  
المعاكسة للبحر المتوسط ( الأمواج المناهضة لتدفق مياه نهر النيل )  
والتحرفة نتيجة اصطدامها بالساحل السورى منعت تكوين تربة زراعية  
على الساحل الشرقى للدلتا ، واختلطت أمواج البحر بالمياه المتدفقة من  
مصاب النيل وشكلت حوضا كبيرا من المياه الضحلة التى تضم جزرا  
كثيرة امتدت من دمياط الى بورسعيد ، وهذا الحوض يحمل الآن اسما  
شاملا هو بحيرة المنزلة - ومياه هذه البحيرات ( التى أطلق عليها مؤخرا  
اسم بحيرة المنزلة ) كانت متصلة من الجنوب ببخيرة البلاح حيث يقع الى  
الجنوب منها « الجسر » الذى تحدثنا عنه آنفا ، أما مياه البحر الأحمر  
فغذت حوض مياه البحيرة التالية وهى بحيرة التمساح ( بركة التمساح )  
والبحيرات المرة التى كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بخليج السويس عن  
طريق قناة عرفت بذيل التمساح ، لا غرابة إذن فى أن مواضع هذه البحيرات  
بين البحرين الأبيض والأحمر بالقرب من النيل ، قد أيقظت فكرة ربط هذه  
البحيرات بقناة مع النيل - وذلك فى فترة ياكرا من حقبة التاريخ  
المصرى ، فإذا ما تم هذا الربط ارتباط البحر المتوسط بالأحمر -

ووفقا للمرويات الكلاسية فان رمسيس الثانى ( وهو سيزوستريس -  
سيزتورا كما تشير النقوش ) كان أول ملك يأمر بشق قناة ملاحية من  
القرع البلوزى ( الفارمى ) للنيل الى بحيرة التمساح مستغلا الانخفاض  
الطبيعى لوادى طميلات ( Tumilat ) - وبقايا المدن والآثار المدرسة والتى  
تحمل اسم هذا الملك لاتدع مجالا للتشكك فى وجود هذه القناة ، وفى  
زمن متأخر بدا أن هذه القناة قد انطمرت وظلت جافة حتى سنة ٦٠٠  
قبل الميلاد عندما قام الملك نخاو Necho بوضع خطة لاعادة ربط النيل  
بالبحر الأحمر ، وعلى أية حال فقد توقف مشروعه ( الذى فنى فيه

- ١٢٠٠ عام مصرى ) بسبب ونى الهى لأحد الكهنة يخدر نخاو من .  
 أنه - بمشروعه هذا - لا يعمل الا لخدمة البرابرة أو الغزاة الأجانب .  
 وبعد مئات السنين من عصر نخاو لم يخش الملك الفارسى قمبيز والملك  
 الفارسى داريا ( داريوس Darius ) من مثل هذه النبوءات التحذيرية -  
 فأكملوا الربط بين النيل والبحر الأحمر ، وبقياء هذه القناة تم اكتشافها  
 فى أيامنا هذه فى منطقة البرزخ ، وقد وجدت هذه البقايا الى جوار مبان  
 تحمل نقوشا فارسية تحدد ثلاث محطات على طول خط الماء الطويل الذى  
 يصل بين بحيرة التمساح وخليج السويس . وثمة توصيع وتطوير فى  
 نظم القنوات هذا تم تحت حكم البطلمة ! اذ تم انشاء قناة فرعية من  
 فاكوسا Phakusa ( فاقوس الحالية ) على المرع البلوزى للنيل  
 الى بحيرة المنزلة وبهذه الطريقة أمكن الوصول لبحيرة البلاح التى كانت  
 تتصل بدورها ببحيرة التمساح والبحيرات المرة ، وبهذه الطريقة اتصل  
 البحران المتوسط والأحمر عند أقرب مسافة بينهما ، وأصبح هذا الطريق  
 المائى ، فى ذلك الوقت - ذا قيمة لا مزيد عليها للتجارة العالمية .  
 وقد تدهورت هذه القنوات تحت حكم الرومان حتى جاء عمرو (بن العاص)  
 القائد المشهور فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فعمل على إعادة الطريق  
 المائى الرابط القديم فربط القاهرة بالسويس عن طريق قنساء ، وفى  
 القرن الثامن للميلاد لم تعد هذه القناة صالحة للملاحة ، وفى سنة ١٦٧١  
 قدم ليبنتز Leibnitz خطة للسويس الرابع عشر تبين أهمية ربط  
 البحرين ، لكن اقتراحه لم يلق أذنا صاغية ، ولما قام الجنرال بوناپرت  
 بحملته الشهيرة على مصر لم تقلت منه فكرة ربط البحرين لكن مشروعه  
 فشل بسبب الحسابات الخاطئة التى وقع فيها المهندس ليبير Lepère  
 والتى مؤداها أن مستوى البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى  
 البحر المتوسط بمدة أمتار تبلغ ٩٩٠٨ أمتار ، وبهذا أصبح وصل البحرين  
 أمرا غير ممكن وأخيرا فى الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر بينت  
 القياسات الدقيقة الخطأ الكبير الذى وقع فيه ليبير . وبعد أن حصل  
 ليسبس Lesseps من سعيد باشا على امتياز حفر قناة السويس ،  
 بدأ العمل الشاق سنة ١٨٥٨ وفى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ تم افتتاح القناة  
 فى احتفال تجلت فيه مظاهر الفخامة والاسراف ، وقد فاقت تكاليف انشاء  
 القناة ١٩ مليون جنيه استرلينى .

وكان من المستلزمات الضرورية للعمل فى القناة شق ترعة للمياه  
 العذبة لامتداد عمال القناة بماء الشرب ، ومد بورسعيد بالماء أيضا بعد  
 ذلك . فتم شق ترعة تبدأ من قرب قصر النيل لتخرج من النيل فى  
 خط مستقيم الى هليوبولس ثم تتجه شمالا بشرق ، وثم شق وادى طرميلات

وأخيرا شهد الساحل الغربى لبحيرة التمساح والبحيرات المرة لتواصل  
الترعة مسيرتها الى السويس .

### لقاء دى ليسبس العجوز :

وتنهي الآن هذه الملاحظات الشائقة التى أرسلها لى صديقى ،  
ولتعد للقناة وسفينةنا البخارية الفرنسية ، فسرعان ما وصلنا الى البحيرات  
المرة وكان منظرها جذابا بشكل لا ينكر ، فالتناقض بين اللون الأزرق  
الداكن والصحراء البيضاء اللامعة لا يمكن الا أن يجذب انتباه المسافر .  
وفى مضيق بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح لاحظنا واحدا من حيوانات  
ابن آوى بالقرب من شاطئ القناة يبحث عن أصداغ الأسماك ، فأطلقنا  
عليه عدة طلقات من بنادقنا ، لكنها كانت طلقات طائشة ، وبالقرب من  
مياه بحيرة التمساح العميقة زرقتها استمتعنا - مرة أخرى - ببهاء الشمس  
الأفريقية .

وبدت منازل الاسماعيلية على الساحل الرمل الى الشمال ، وسرعان  
ما وصلت باخرتنا للرصيف الفرنسى الفاخر ، وكان فى انتظارنا  
مستر ليسبس المنشئ المشهور لهذا المشروع الملاق الذى وصل  
البحرين ، وكان معه ابنه وعدد من موظفى الشركة الفرنسية ، وكنت  
سعيدا جدا أن أعرف بهذا الرجل العجوز الذى لازال نشطا شغوبا  
بالعمل لا يعرف التراجع ولا ينثنى له عود . وقد ذهب بنسا الى منزله  
الريفى المحاط بحديقة صغيرة ، واستقبلتنا هناك زوجة ابنه الجميلة وهى  
يونانية قاهرية من أسرة سينادينو Sinadino الثرية ، وكان حاضرا  
أيضا أخوها وهو شاب طريف ، وسيدة انجليزية ، وسرعان ما تناولنا  
عشاءنا عقب وصولنا وقضينا المساء فى حوارات اجتماعية ممتعة ، وبدأنا  
صباح اليوم التالى ، مبكرا جدا - وكان السيد ليسبس على رأسنا -  
فركبنا القطار لمسافة قصيرة الى محطة مقسمة Maksama ، فتوقفنا ،  
لكننا وجدنا صعوبة فى اخراج خيولنا العديدة من القطار ، اذ راحت  
تسهل وتندفع فضاع منا وقت كثير فى التجهيز لرحلة الصيد ، وكانت  
قبيلة بدوية قد ضربت خيامها بالقرب من المحطة وعند وصولنا خرج  
هؤلاء الرجال الرائعون من خيامهم وأقبلوا إلينا على خيولهم وجمالهم ،  
وفى مقدمتهم شيخهم يمتطى صهوة فرس كستنائى رائع .

لقد أحسن السيد ليسبس بدعوة هذه القبيلة - المشهورة بمهارتها  
فى المطاردة - لتكون بالقرب من الاسماعيلية حتى نتمكن من رؤية البدو  
يصطادون غزلانا . كان الشيخ فى المقدمة يرتدى عباءة بيضاء خالصة ،  
وكان سرج فرسه جيلا ، وقد ثبت سيفا معقوبا حول خاصرته ، ووقف

على يده ذات القفاز صقر نبيل حول رأسه غطاء لامع . وتبعه جمع من البدو راجلين أو راكبين جمالا أو خيولا وكانوا مسلحين ببنادق طوال وسيوف معقوفة وخناجر ، وكانوا جميعا يلبسون ثيابا بيضا . كانت وجوههم بنية ومعبرة جدا ، وكان يتبع السادة منهم كلاب آسيوية ، ومعهم بعض الصقور المختلفة لكنها ليست من النوع الممتاز نفسه الذي مع شيخهم .

والقبيلة التي معنا الآن تتحرك خلال الصحراء ، غير بعيد عن الخط الحديدي ، وأصبح تجوالها في أفريقيا ( مصر ) منذ فترة ، لكنها قبيلة عربية خالصة من شبه الجزيرة العربية ويمكن للمرء استنتاج ذلك بسهولة من خلال ملاحظة خيولها النubile و ثراء دروع الرجال وثيابهم ، لقد ركبنا - مشكلين صفا طويلا غير متسلح - خسلال وديان الصحراء ومسيلاتها الجافة . لقد كنا نقصد صيد الغزلان فحسب فاذا بنا نرى أيضا الأرناب البرية .

وظلت جهودنا - طوال ساعتين - بغير نتائج ، وبدأ البدو يتقدمون - وقد فقد صبرهم - لتوسيع دائرة البحث عن الغزلان وقد اكتشف أحد هؤلاء البدو غزالا خارجا من بعض الشجيرات الكثيفة ، فتجمع البدو بغير نظام يطاردون هذا الغزال وأطلقت الكلاب وأحاط راكبو الخيول بالغزال من كل جانب حتى لا تجد سبيلا للهروب ، فراح تدور خائفة تليسها الرعب حول الخيول ، فوضع أحد البدو نهاية سريعة للمطاردة فأطلق بنفخيته أثرها بينما كان منطلقا بسرعة ، فهوى الغزال في لحظة .

وأعقب ذلك محاولة لصيد الأرناب الصحراوية ، ولأن الحرارة كانت شديدة جدا كما أن فرصنا في الفوز بهذه الحيوانات كانت قليلة - فقد اتخذنا طريقنا عائدين لمحطة السكة الحديد . ولكي يستعرض الشيخ مهارة الصقر ، فقد تركه يطير ليقتنص حمامة سرعان ما هوت بعد ثوان قليلة متأثرة بمخالبه القوية .

ووصلنا سريعا للمحطة وتناولنا افطارا متواضعا في المركبات، وبعدما عاد بعض الرفاق للاسماعيلية ، بينما صخبني الآخرون في باخرة صغيرة في نزهة قصيرة في ترعة المياه العذبة ، وتوقفنا عند منزل عتيق مهتم وعبرنا الكثبان الرملية الى قطاع سبخى تحيطه الصحراء غير بعيدة عنه ، ويمتد هذا القطاع السبخى موازيا للترعة حتى بحيرة التماسح في موضع غير بعيد عن الاسماعيلية .

وقادنا رجل فرنسي ظريف ، كمننا أنه رياضي متحمس - في هذه المنطقة السبخة التي سبق له ممارسة الصيد - بنجاح - فيها ، وفي بداية

السيخة وجدنا طيور التغلق الأفريقية الذهبية الجميلة والتي لم نرها من قبل ، وقد اصطدنا منها عددا كبيرا فى دقائق قليلة . وفى الأراضى التى تزداد فيها الروية والماء وجدنا كثيرا من الشناقب وأنواعا عديدة من الحيوانات الصغيرة سواء حيوانات الماء أو حيوانات السبخات ، كما رأينا أيضا عددا من البط وطيور الزقزاق ذوات الشوكات فى أرجلها ، وحطت طيور السماء بين الحشائش الطوال ، وكان الجراد أيضا متيرا جدا لم أر أبدا أكبر حجما منه ، وطار هذا الجراد محدنا طنيننا عاليا يسمع من بعيد نسبيا ، ولكى أتفحص جرادة منها كنت مضطرا لاطلاق بندقتى عليها كما لو كنت أطلقها على واحد من طيور السماء . انها طليقة غريبة حقا !

وفى واد ضيق تحيطه الصحراء كانت الشمس تحرق أبداننا بشكن مرعب جالبة البخر النتن من السيخة ، وبعد عدة ساعات من الصيد المرهق ، عدنا محملين بكثير مما اصطدناه - الى ترعة المياه العذبة وركبنا - مرة أخرى - باخرتنا التى عادت بنا سريعا الى الاسماعيلية ، فتناولنا عشاءنا على ظهر إحدى البواخر الفرنسية بناء على رغبة ليسبس بدلا من تناوله فى بيته ، وخلدنا للراحة مبكرا .

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا جميعا لكنيسة صغيرة - لكنها جميلة - حيث كان الفرنسيون يقيمون القداس لكل الجالية الفرنسية هنا ثم صحبتنا ليسبس فى جولة فى شوارع وحدائق هذه المدينة الفرنسية الصغيرة ، وأطلعنا الرجل العجوز ( ليسبس ) بفخر واضح على كل ما أنجزه فى هذه الصحراء الجدياء ، انه عمل يبدو كأنه تم بسحر ساحر .

وحان وقت الرحيل فاستأذنا - على المحطة - من الكونت ليسبس والهر زمرمان الذى جانا بفضلهم خلال كل رحلتنا - أثناء استخدامنا القطارات - فى مصر ، وتحركت الباخرة ، وكان بصحبتنا م . ليسبس الشاب وزوجته وبعض الفرنسيين . كانت الرحلة مريمة ، تخللها حوار جذاب وشائق قطعت خصوصيته على المشاهد القاحلة .

وأطلقت بندقتى على بعض طيور الكروان ونسر من نسور الجيف ، من فوق ظهر السفينة ، وفى المناطق الضحلة ببحيرة المنزلة وجدت آلافا من البجع وطيور البشروس تتالق بالحمرة التى ألقتها عليها أشعة الشمس .

## مغادرة مصر :

وفى بورسعيد استقبلتنا الجالية النمساوية البلغارية استقبالا حافلا ، ووصلنا فى القوارب الى سفينتنا ميرمار ، وما هى الا دقائق حتى كنا على ظهر سفينتنا الطيبة ، وعزف سلامنا الوطنى ، ومدينة بورسعيد مدينة أوربية تماما ، فميناؤها الواسعة ومباني القناة ، وأحواض السفن والورش والسفن - كل هذا له طابع أوربى تماما .

وتناولنا عشاءنا - متأخرا - فوق ظهر ميرمار ودعونا اليه عبد القادر باشا وبعض الفرنسيين ، وعندما حل الظلام زينت جاليتنا المقيمة هنا الميناء وعددا من القوارب بأضواء جميلة وراحت قوارب بهيجة مضاعة مزودة بفرق موسيقية تنور حول ميرمار ، مصدرة ألحان الألحان ، وشاهدنا ألعابا نارية على البر .

وحان وقت الرحيل سريعا فغادر ضيوفنا ميرمار ، وكذلك عبد القادر باشا . لقد تعلمنا أن نقدر هذا الرجل ونحترمه فقد كان مرافقا مخلصا وصديقا حقيقيا .

لقد أمضينا أياما عظيمة لا يمكن أن تنسى فى أفريقيا ، وحملنا معنا انطباعات عن عظمة هذه القارة السوداء ، وعن حضارة مصر القديمة المتألقة من قبور مضى عليها آلاف السنين . انها حضارة عظيمة لكنها تالشت .

\*\*\*

## تعليقات المترجم على الفصل السادس

(١) بئر يوسف ( الحازون ) ، وقد حفرت بداخل القلعة وخلف مسجد الناصر محمد بن قلاوون بئر للافادة من مائها اذا قدر للقلعة أن يحاصرها عدو وهى البئر المعروفة بالحازون ويبلغ عمقها تسعين مترا ، وتستخرج المياه منها بواسطة مواق وهى من عجائب البنيان ؛ لأنها محفورة فى الصخر ويستلزم الاستاذ حسن عبد الوهاب قائلا : « وانى أرجح أن تلك البئر تسبق عصر صلاح الدين خصوصا وأنها خارج أسواره ، أما مياه النيل العذبة فقد كانت تصل إلى القلعة فى عهد صلاح الدين ويعدده بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من القسطنطين إلى القلعة والموجودة بقاياها الآن » .

(٢) يتحدث جـ. هونج ( من علماء الحملة الفرنسية ) عن عيون موسى قائلا أنها « ٠٠٠ تكاد تكون مواجهة لوادى النيل » - - وستقع فى خطا اذا ظننا أن اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة إلى القدم ، وأنه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك أن اسم هذه الينابيع شأنها شأن عين الجنراء فى المطرية ( هليوبوليس القديمة ) وشأن عيون غيرها ككثيرات لا يعود إلى ما قبل استقرار المسيحية فى مصر ، حيث تحولت أسماء قديمة تتصل بديانة تزعزعت مكانتها إلى أسماء أخرى حشابة فى المعتقدات الجديدة . وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه لبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى فى الصحراء فإنها مع ذلك مائلة للملوحة ٠٠٠ ، وصف مصر ، ج ٢ من ٨١ - ٨٥ .

(٣) وجدنا من الضروري أن نشير - بالتفصيل - لفروع النيل القديمة - بكثرة الإشارة إليها فى هذه الرحلة - وعمدنا إلى جعل هذه الحاشية مفصلة قدر الامكان حتى لا يقطع التجزئ استطرادها ، على أن نحيل القارئ لهذه الحاشية نفسها اذا استلزم الأمر الاحاطة إليها بعد ذلك .

فى العصور القديمة كان للنيل سبعة مصبات على الأقل ، وقد تقلص هذا العدد كما هو معروف إلى اثنين فقط الآن ، ومن المؤكد فيما يقول الباحث الفرنسى دى بوا - أن الملتقا قد تشاءلت مساحتها حتى لا تكاد تبلغ مساحة الدلتا القديمة ، على أية حال لهذه الأفرع هى :

- ١ - الفرع الجليوزى أو فرع بوياسطة .
- ٢ - الفرع التائيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة إم قارج .
- ٣ - الفرع المنيسى أو فرع النبية .
- ٤ - الفرع البيلنتينى وهو فرع سياط الحالى .
- ٥ - الفرع المينيتينى وهو فرع اليرامس .
- ٦ - الفرع البولبيتينى وهو فرع رشيد .
- ٧ - الفرع الكانوى أو فرع دى قير .



وكان الفرع البيلولوى ( شرق الدلتا ) سالحا للملاحة عندما توغل الاسكندر  
الأكبر فى مصر فقد أدخل فى هذا الفرع أسطوله الذى استمداه من غزة لكن الرمال تسد  
اليوم هذا الفرع ولا تزال ترى حتى أيام الحملة الفرنسية عند بيلوز ( بالوطنة ) ففتحته  
التي كانت تؤدى الى البحر وهى مليئة بالطين ، وأثار هذا الفرع كانت لا تزال واضحة  
أيام الحملة الفرنسية الى الشمال من بليس عند قرية بسطة التي كانت تعرف قديما باسم  
بوياسطة ، أما الفرعان الثانى والثانى ( الى الغرب من فرع البيلولوى - وكلها شرق  
الدلتا ) فكانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تتييس - ويميل  
مالو ( أحد علماء الحملة الفرنسية ) الى أن التربة المعروفة باسم بحر مريس هى الفرع  
الثانى للتيل وأن الرمال سدت جزءه الأدنى وبالتالي عاقته عن الوصول للبحر المتوسط  
( عن طريق بحيرة المنزلة ) .

وكان الفرعان البيلولوى ( شرق الدلتا ) والكانوبى ( غرب الدلتا ) يشكلان قصة  
الدلتا ويحدانها من ناحية الشرق والغرب .

وصف مصر ، ج ٣ ( المدن والأقاليم المصرية ) انظر ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .  
٢٧٢ - ٤٢٠ .

(٤) يتحدث الأرشيدوق كثيرا عن العرب فى مصر ، فيقول : قايلت عربيا ، وقال العرب،  
وسكان عرب ... الخ وقد يتبادر الى الذهن أنه يقصد بدو الصحراء وهذا غير صحيح  
دائما . فالواقع أن عرب الجزيرة الذين قدموا الى مصر مع عمرو بن العاص ، والذين  
كانوا فى مصر قبل عمرو ، قد تحول عدد كبير منهم بالتدريج الى سكنى الوادى والدلتا ،  
وعرفوا فى التاريخ الاسلامى باسم العرب المزارعة واستمرت عملية تحضرهم واستقرارهم  
مستمرة ربما حتى الآن ، ويحدثنا كتاب الحملة الفرنسية عن العريان الذين كانوا مزارعوا  
... وقت الحملة - فى حالة بدو واولئك الذين استقروا وعملوا فى مجال الزراعة  
وغيرها ، ونفضل أن نورد هنا بعض ما ذكره دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية فى دراسة  
القبائل العربية فى صحراوات مصر - ( ترجمة زهير الشايب ، ج ٢ من وصف مصر ) :  
« حقيقة الأمر أن صحارى مصر أهلة ، يسكنها رجال ضخم شداد يسعون بالعريان البدو  
ومؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات .. ، وبماكانهم الاعتماد تماما على  
قطعانهم لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر أخرى للمعيشة ويشاهدناهم انهم يحرقون  
حول الوادى والدلتا ) كانتهم ذئاب جائعة ، وأن كان العريان يسعون فى بعض الأحيان ..  
للحصول على اذن من الحكام للإقامة فى المناطق الخصبة وفى أحيان أخرى يستقرون  
عنوة فى مناطق خصبة ... ومع هذا فهناك بعض القبائل التي لا تبت طيائعا بفعل سلام  
طويل . وانتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل  
كثوى من حياة البداوة لحياة الزراعة ، والمثل الواضح فى الصعيد على ذلك قبيلة الهوارة  
وأصبحوا من ثروة الملاك ، وفقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية ... وتحول حبهم الطاقى  
للحرية الى حب للوطن ... » ص ٢٦٢-٢٦٦ .



## اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الاكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدين هكسلي
الجغرافيا في مائة عام	ت . و . قريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج )	ر . ج . فوريس
الأرض الغامضة	ليستربيل راي
الرواية الانجليزية	والتر السن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصري على الشاشة	د . قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية في السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات التقود	ديفيد وليام ماكروال
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق	عزيز الشسوان
عصر الرواية - مقال في النوع الادبى	د . محسن جاسم الموسوى
ديالان توماس	اشراف س . بى . كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القصة النفسية للاهرام	بيل شسول وأدبنييت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ثى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل واحاديث من الملقى	فيكتور هوجو
الجزء والكل ( محاورات في مضمار	فيرنر هيزنبرج
الفيزياء الذرية )	
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف . ع . ادنيكوف
ادب الاطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سينسر
التحليل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازا-	
مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الحصافة	بيير البيير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	الدكتور غبريال وهبة
التشكيلى	
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الاوروبى الحديث ( ٤ ج )	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيل المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى
الفتنة الاسرية والابناء الصغار	د . محيى الدين احمد حسن

تأليف : ج . دافلى اندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الادب القصصى
د . جوهان دورشز	الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟
مجموعة من العلماء الأمريكيين	حرب الفضاء
د . العبيد جليزة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عيسى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الادب اليابانى
فرانكلين ل . باور	الفكر الاوروبى الحديث ٢ ج
جاويدىيل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسينى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زاقيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف دامموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م پورا	التجسرية اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د . سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د . اندرسون	
د . انور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
والتر روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فرد . س . هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	المعادن والتقاليد المصرية
الان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياسى
فريد موبل	الببذور الكويتية
شاندرا ويكراماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة ( ٢ ج )
روى روبرتسون	الهيرويين والابيض
دوركاس ماكلينتوك	صور افريقية
هاشم النحاس	نجيب محفوظ على الشاشة

الكمبيوتر في مجالات الحياة  
 المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية  
 وظائف الأعضاء من الألف الى الياء  
 الهندسة الوراثية  
 تربية أسماك الزينة  
 كتب غيرت الفكر الإنساني ( ٣ ج )  
 الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )  
 الفكر التاريخي عند الإغريق  
 قضايا وملامح في الفن التشكيل المعاصر  
 التغذية في البلدان النامية  
 بداية بلا نهاية  
 الحرف والصناعات في مصر الإسلامية  
 حوار حول النظامين الرئيسيين  
 للكون  
 الإرهاب  
 اختلاطون  
 القبيلة الثالثة عشرة  
 الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )  
 الأساطير الإغريقية والرومانية  
 تاريخ العلم والتكنولوجيا  
 التوافق النفسي  
 الدليل البيولوجي في  
 لغة العنصرة  
 الثورة الإصلاحية في اليابان  
 العالم الثالث هذا  
 الاتقراض الكبير  
 تاريخ النقود  
 التحليل والتوزيع الأوركسترا  
 الشاهنامة ( ٢ ج )  
 الحياة الكريمة ( ٢ ج )  
 قيام الدولة العثمانية

د . محمود سرى طه  
 بيتر لسونى  
 بريس فيدوروفيتش سيرجيف  
 ويليام بينز  
 ديفيد الدوتون  
 أحمد محمد الشنواني  
 جمعها : جون ر . بورر  
 وملتون جولدينجر  
 أنولد توينبى  
 د . صالح رضا  
 م . م . كنج وآخرون  
 جورج جاموف  
 د . السيد طه أبو سديرة  
 جاليليو جاليليه  
 أريك موريس وآلان هو  
 سيريل السريد  
 آرثر كيسنغر  
 جون بورر  
 ب . كومان  
 ر . ج . فوريس  
 توماس ١ . هاريس  
 مجموعة من الباحثين  
 روى آرمنز  
 ناجاي متشييو  
 بول هاريسون  
 ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك  
 فيكتور مورجان  
 أعداد محمد كمال اسماعيل  
 الفردوسى الطرسى  
 برتون بورتر  
 محمد فؤاد ، كويريلي

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
ترائيم زرادشت	اختيار / د. قليب عطية
السينما العربية	منى براخ وأخسرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبشر
التاريخ من شتى جواتيه ( ٣ ج )	سقفن أوزمنت
الحملة الصليبية الاولى	جوناثان ريل سميث
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون في اوريا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة في مصر ( ٢ ج )	الفريد ج. بيلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر ( ٢ ج )	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د. رفيق الصبيان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر في ألف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخست
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني ( ٣ ج )	احمد محمد الشنوائى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	سوريال عبد الملك
من هم القصار	ابرار كريم الله

اعداد / جابر محمد الجزار	ماستريخت
هـ ج ٠ ولز	معالم تاريخ الانسانية ٤ هـ
جوستاف جرونيياوم	حضارة الاسلام
ستيفن رانسيمان	الحملات الصليبية
ارنولد جزل	الطفل ٢ هـ
بادى اونيمود	الغريقا الطريق الآخر
فيليب عطيه	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ٠ ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهريه
فراقسيس ج ٠ برجين	الاعلام التطبيقى
ج كارقيل	تيسيط المقاهيم الهندسية
الفين توفلد	تحول السلطة
توماس نيبهارت	فن المايه والبانثوميم
اعداد كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
بول وادن	خفايا نظام النجم الأمريكى
جوزيف بتس	رحلة جوزيف بتس
اعداد محمود سامى عطا الله	الفيلم التسجيلى
جورج ستانير	بين تولستوى ودوستويفسكى
كريستيان دى روش	المرأة الفرعونية
ستانلى جين سولومون	انواع الفيلم الأمريكى
جوزيف ٠ م ٠ بوجز	فن الفرجة على الافلام
آدمز مترز	الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ
ايقر شاتزمان	كوئتسا المتمدن
فاسكو داجاما	رحلة فاسكو داجاما
ادوارد ويونو	التفكير المتجدد
ويليام هـ ٠ ماثيوز	ما هى الجيولوجيا
جارى ب ٠ ناش	الحمير والبيض





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٦/١٩٣٣

---

ISBN .. 977 .. 01 .. 4663 .. 3



قام الأمير النمساوي ريتشارد برجلته لمصر والقدس في أواخر عهد  
الخبير إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف  
معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للأثار ونشر ترجمات  
رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مخاطرته مصر توجه إلى  
حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف  
الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدع إعجابا بروح التسامح في  
القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة  
كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدع رأيه فيها

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)